

# سُورَةٌ فَصَّلَتْ

مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ .

﴿حَمَّ \* تَنْزِيلٌ﴾ المراد به المنزَّل، والتعبير عن المفعول بالمصدر، مجاز مشهور، يقال: هذا الدرهم ضربُ السلطان أي مضروبه، أي هذا القرآن العظيم منزل ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته الأكوان، وعمَّ فضله جميع الخلق من إنس وجان، ونسبة التنزيل إلى «الرحمن الرحيم» للإيدان بأنه محقق للمصالح الدينية، والدينية، وواقع بمقتضى الرحمة الربانية، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني أنه كتاب منزلٌ من ربِّ العزَّة والجلال، يمقتضى رحمته للعباد.

﴿كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي ميزت بحسب النظم والمعنى، في أساليب مختلفة، ومعان متغايرة، من أحكام، وقصص، ومواعظ، وأمثال، ووعد، ووعيد، وبالجملة فمن أنصف، علم أنه ليس في بدء الخلق، كتاب اجتمع

فيه من العلوم المختلفة، مثل ما في القرآن الكريم ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلسان العرب قرآنًا عربيًّا، واضحاً جليًّا، معجزاً في فصاحته وبيانه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معانيه لكونه على لسانهم، وقيل: لأهل العلم لأنهم هم المنتفعون به .

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ .

﴿بَشِيرًا﴾ لأهل الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأهل المعصية ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره مع كونه على لغتهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفكر وتأمل، حتى يفهموا جلالة قدره، فيؤمنوا به .

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَا﴾ .

﴿وَقَالُوا﴾ لرسول الله ﷺ عند دعوته إياهم إلى الإيمان، والقرآن ﴿قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَرِ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم، وأصله الثقل ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل، وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدارك الحق وقبوله ﴿فَأَعْمَلْنَا﴾ أي على دينك، وفي إبطال أمرنا ﴿إِنَّا عَمِلُونَا﴾ أي مستمرون على ديننا، وقيل: في إبطال أمرك .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ .

﴿قُلْ﴾ تلقينٌ للجواب عنه ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لست من جنس مغاير لكم، حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين، بل إنما أنا

بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به ﴿أَتَمَّ إِلَهَكُمُ اللَّهُ وَحِدٌ﴾ حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد، جامع بيني وبينكم، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ تعالى بالتوحيد، والإخلاص في العمل ﴿وَأَسْتَفِرُّوهُ﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة، وسوء العمل ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك، إثر ترغيبهم في التوحيد، والاستقامة في العمل.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي هلاك ودمار للمشركين، ووصفهم بذلك لزيادة التحذير عن منع الزكاة، حيث جعل من أوصاف المشركين أنهم لا يؤتون الزكاة، وقيل معناه: لا يفعلون ما يزكي أنفسهم، وهو الإيمان، والطاعة.

وسعادة الإنسان مربوطة بأمرين: ١ - التعظيم لأمر الله. ٢ - والشفقة على خلق الله.

﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي وهم منكرون للآخرة، جاحدون للقاء الله، لا يؤمنون بالبعث والنشور. أثبت تعالى الويل، لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة.

١ - أن يكون مشركاً وهو ضد التوحيد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

٢ - كونه ممتنعاً من الزكاة، وهو ضد الشفقة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

٣ - كونه منكراً للقيامة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وإذا كان الإنسان في هذه المراتب الثلاثة؛ كان في نهاية الجهل والضلالة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي لا يمنُّ به عليهم، لأنه تعالى لَمَّا سَمَّاهُ أَجْرًا، فَإِنَّ الْأَجْرَ لَا يُوجِبُ الْمَنَّةَ، وَقِيلَ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي دائم غير مقطوع، ومن إكرام الله للمؤمن، أنه إذا مرض، أو عجز عن الطاعة، كتب له أجره كاملاً، لما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان العبد يعمل عملاً صالحاً، فشغله عنه مرضٌ، أو سفرٌ، كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ كِصَالِحَ مَا كَانَ يَعْمَلُ، وَهُوَ صَحِيحٌ مُقِيمٌ»<sup>(١)</sup>.

﴿ قُلْ أَيِّنَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءُتْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ قُلْ أَيِّنَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم، و «إن»، و «اللام» لتأكيد الإنكار، وإنما علق كفرهم بالموصول حيث قيل: ﴿بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ لتعظيم شأنه تعالى، واستعظام كفرهم، والتعجيب منه، فكأنه يقول من قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة، كيف يُعْقِلُ الكفر به، وإنكار قدرته على الحشر، وبعثة الأنبياء؟ وكيف يُعْقِلُ جعل هذه الأصنام الخسيسة نِذَاءً له؟ وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي حكم وقدر بأنها ستوجد في مقدار يومين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءُتْدَادًا﴾ أي وتجعلون له أُنْدَادًا، والحال أنه لا يمكن أن يكون له نذٌّ واحد ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك العظيم الشأن، الذي فعل ما ذكر ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي خالق جميع الموجودات.

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءً لِلنَّاسِ لِئَيْسَابِلَيْنِ ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٩٥/٦ وأبو داود في الجنائز رقم ٣٠٩١.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا﴾ أي كائنة من فوقها، وهي الجبال، مرتفعة عليها، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أنقال، وكلها مفتقرة إلى خالق، وحافظ، وما ذاك إلا الله رب العالمين ﴿وَيَرْكُ فِيهَا﴾ أي قدّر أن يكثر خيرها، بأن يخلق أنواع الحيوانات، وأصناف النباتات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي حكم بالفعل بأن يوجد لأهلها، من الأنواع المختلفة، أقواتها المناسبة لها، على مقدارٍ معيّن، تقتضيه الحكمة ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي قدّر حصول الأمور المذكورة في الأرض في يومين، فصار مع اليومين الأولين في أربعة أيام ﴿سَوَاءً﴾ أي تلك الأيام الأربعة، أيام كاملة مستوية، لا زيادة فيها ولا نقصان ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي لأجل من سأل، في كم خلقت الأرض وما فيها؟.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ شروع في كيفية التكوين، إثر بيان كيفية التقدير، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها، لاعتناؤه تعالى بأمر المخاطبين، وترتيب معاشهم، قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر، ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي دخان مرتفع من الماء وهو بخار الماء المتصاعد من الأرض حين خلقت، كما ذكره الحافظ ابن كثير ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ التي قدر وجودها، ووجود ما فيها ﴿اِئْتِيَا﴾ أي كونا على وجه معيّن، وفي وقت مقدر، أو استجيبا لأمري طائعتين أو كارهتين، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك أي طائعتين أو كارهتين، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي منقادين، تمثيل لكمال تأثرهما بالذات وحصولهما كما أمرتا به<sup>(١)</sup>.

(١) لنقف وقفةً قصيرة عند هذا التعبير المعجز، فإنّ فيه سرّاً عجبياً، يفوق الخيال في =

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ  
الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ تفصيل لتكوين السماء المجمل، أي خلقهن خلقاً محكماً، وأتقن أمرهنَّ، حسبما تقتضيه الحكمة ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي في وقتٍ مقدَّر بيومين، فكان خلق الكل في ستة أيام، حسبما نصَّ عليه في مواضع من التنزيل ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي خلق في كل منها من الملائكة والنيرات، وغير ذلك، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، وأوحى إلى كل منها ما يليق بها من التكليف ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ من الكواكب، فإنها ترى متلاثة عليها، كأنها فيها، والاتفات إلى نون العظمة للاعتناء بالأمر ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها من الآفات، أو من المسترقة للسمع حفظاً ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكر ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ المبالغ في القدرة والعلم، وما أحسن هذه الخاتمة، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة تامة، وعلم محيط.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿١٣﴾ .

روعة الجمال، فالآية الكريمة، تشير إلى انقياد هذا الكون إلى خالقه ومبدعه، انقياد العبد لسيدته، والجندي لقائده، وقد عبَّر عن هذه الطاعة والاستسلام، بتمثيل رائع بديع، يجعل من الجماد وكأنه إنسان عاقل، يؤمر فيلبي الأمر، ويكلف بشيء فيسمع ويطيع، على حدِّ قول العرب: «قال الحائط للمسمار لِمَ تشقني؟ قال: سل من يدقني» والغرض من الآية هنا، تصوير نفوذ قدرته سبحانه في المخلوقات، بصورة العبد المطيع، الذي لا يقوى على مخالفة أمر سيده، فكلُّ ما في الكون من شمسٍ، وقمر، ونجوم، وجبال، وبحار، وأنهار.. إلى آخره مستسلمٌ لأمر الله، متقادٌ لحكمه وتدييره، ويمكن أن يخلق الله في السموات والأرض القدرة على الكلام والجواب، إن حملنا اللفظ على الحقيقة لا على المجاز، لأن الله على كل شيء قدير، فكما أنطق الإنسان ينطق الجماد والحيوان!.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي عذاباً هائلاً، شديد الوقع، كأنه صاعقة، مثل صاعقة عاد و ثمود.

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۗ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ﴾ أي حين جاءتهم الرسل يدعونهم إلى الإيمان، ويخوفونهم من الكفر والإشراك ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم، واجتهدوا بهم من كل جهة، من جهات الإرشاد والنصيحة، تارة بالرفق، وتارة بالعنف، وتارة بالتشويق، وأخرى بالترهيب، والتحذير عما سيحيق بهم، من عذاب الدنيا والآخرة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ أي إرسال الرسل ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لأرسلهم، بدلکم، فآمننا بهم، وأنتم بشر مثلنا، فكيف نصدّق أن الله أرسلکم؟ ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمکم، وفيه ضرب تهكم بهم ﴿كَافِرُونَ﴾ لا نؤمن بکم ولا بما جئتم به.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۗ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ شروع في حكاية ما يخص كل واحدة من الطائفتين، من الجناية والعذاب، أي فأما قبيلة عاد الطغاة الفجرة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي فتعظّموا فيها على أهلها، بغير استحقاق للتعظيم والولاية ﴿وَقَالُوا﴾ معترزين بشدتهم وقوتهم، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام، وشدة القوة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أعفلوا، ولم ينظروا، ولم

يعلموا ﴿ أَنْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي قدرة، فإنه تعالى قادر بالذات قوي على ما لا يقدر عليه غيره، ومفيض القوى على الغير ﴿ وَكَانُوا بِقَائِلَتِنَا يَمْحَدُونَ ﴾ أي أنكروها وهم يعرفون حقيقتها، كما ينكر الإنسان الوديعة، فجمعوا بين الاستكبار وبين الإنكار، فكانوا فسقة كفرة (١).

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أي باردة تهلك، من الصرّ وهو البرد، أي تهلك من شدة بردها، أو شديدة الصوت، تصوّت في هبوبها، من من الصرير، قيل: إنها الدبور ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ مشؤومات غير مباركات، جمع

(١) روي أن أبا جهل قال ذات يوم في ملا من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فأنا بخبره، فقال «عتبة بن ربيعة»: والله ما يخفى عليّ شيء من هذه، فأرسلوني إليه فأنا آتيتكم بحقيقة أمره، فأرسلوه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فبم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ فإن كنت بما جئت به تريد الرئاسة، عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد النساء زوجناك عشر نسوة من أجمل بنات قريش - ورسول الله ﷺ ساكت - فلما فرغ عتبة قال له عليه السلام: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع - بسم الله الرحمن الرحيم - ﴿ حَمَّ . تنزِيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته . . . ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ ﴾ فأمسك عتبة على فم النبي ﷺ وأنشده الرحم أن يكف عما يقول، فقد خاف على نفسه الهلاك، ولم يرجع إلى قومه وهم ينتظرون خبره، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ - أي دخل في دين محمد - فجاؤوا إلى منزله وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا؟ فقال: والله لقد كلمته فسمعت منه كلاماً ما هو بشعر، ولا سحر، ولا كهانة، فناشدته الرحم أن يكف، وتعلمون أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب!! .

نحسة من نجس نحساً، نقيض سعد سعداً قيل: كن آخر شوال من يوم الأربعاء ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذي هو الذل والاستكانة، لأنهم استكبروا، فقابلهم الله تعالى بالخزي والهوان، والذل والصغار ﴿وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ وهو في الحقيقة وصف للمعذب، وقد وصف به العذاب للمبالغة ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَٰعِقَةٌ ۚ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ﴾ فدللناهم على الحق، بنصب الآيات التكوينية، وإرسال الرسل ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الضلالة على الهدى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَٰعِقَةٌ ۚ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ الهون: الهوان، وصف به العذاب مبالغة ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ باختيارهم الضلالة على الهدى.

﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وهم صالح عليه السلام ومن آمن من قومه، من تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ التعبير عنهم بأعداء الله، لدمهم والإيذان بعلة ما يحق بهم، من ألوان العذاب، والمراد من النار موقف الحساب، إذ هناك تتحقق الشهادة الآتية، والتعبير عنه بالنار، للإيذان بأنها عاقبة حشرهم، وأنهم على شرف دخولها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجمعوا، ثم يساقون إلى جهنم.

﴿ حَقِّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ حَقِّ إِذَا مَا جَاءَهَا ﴾ إذا حضروها، وشاهدوا أهوالها وسعيرها ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والعصيان، بأن ينطقها الله تعالى، وعن ابن عباس المراد بشهادة الجلود: شهادة الفروج، وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ ﴾ فَإِنَّ ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً، وأجلب للخزي مما يشهد به السمع والبصر.

﴿ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أنطق كل ناطق، وأقدرنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فإن من خلقكم أولاً وأعادكم ثانياً، لا يتعجب من إنطاقه لجوارحكم، وينبغي أن يعلم المؤمن، أن عليه من جوارحه رقيباً، يشهد عليه يوم القيامة.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ أي يقال لهم على طريق التوبيخ والتفريع: ما كنتم تستخفون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش، مخافة ﴿ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ بذلك، كما كنتم تستخفون من الناس مخافة الافتضاح عندهم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ

اللَّهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿﴾ من القبائح المخفية، فلا يظهرها في الآخرة، ولذا اجترأتم على ما فعلتم.

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنْ  
الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ۞ .

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنْ  
الْخَاسِرِينَ ﴿﴾ سبب ذلك الظن السوء ﴿ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي من الذين خسروا  
سعادتهم وأهلهم، وذلك تمام الخسران والشقاء.

﴿ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ  
الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ .

﴿ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي محل سكن وإقامة، ومنزل دائم  
لهم في جهنم ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا ﴾ أي يسألوا العتبي وهو الرجوع إلى ما  
يحبونه من إرضاء الله عزَّ وجل ﴿ فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ أي المجابين إليها  
المرضي عنهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ غَنًا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا  
مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (١) يعني أنهم إذا أرادوا أن يرضوا ربهم، فما هم من  
المجابين إلى ذلك فقد مضت الدنيا دار التكليف والابتلاء، وقبول  
الاعتذار.

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ  
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدِ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا  
خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ .

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢١.

﴿ وَقَيَّضْنَا ﴾ أي هيأنا ويسرنا ﴿ لَهُمْ ﴾ للكفرة في الدنيا ﴿ قُرْآنًا ﴾ جمع قرين أي أخداناً من الشياطين، يستولون عليهم استيلاء المالك لعبده ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمور الدنيا، واتباع الشهوات ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمور الآخرة، حيث أخبروهم أن لا يعث ولا حساب، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (١) ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب، وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ فِي أَمْرٍ ﴾ أي كائنين في جملة أمم، من الأشقياء المجرمين ﴿ قَدْ خَلَّتْ ﴾ أي مضت ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ على الكفر والعصيان، كدأب هؤلاء ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير للفريقين.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم، أو قال بعضهم لبعض ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ لأنهم علموا أن القرآن كلام بليغ مؤثر، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط فهمه بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلام حق، فدبروا مكيدة لمنع الناس عن استماعه ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته لتشوشوا على القارئ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تغلبونه على دينه، قال ابن عباس: «قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول».

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧).

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ لا يقادر قدره ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم، وعن ابن عباس: عذاباً شديداً في الدنيا، وأسوأ العذاب في الآخرة.

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر، أسوأ الجزاء ﴿ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴾ أي جزاء معدّ لأعدائه ﴿ النَّارُ ﴾ هو نار جهنم، وهو عطف بيان للجزاء ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ أي لهم في النار، دار مخصوصة هم فيها خالدون ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا، ويلغون فيها.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب ﴿ رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ يعنون فريقى الشياطين، الحاملين لهم على الكفر والمعاصي من الإنس والجن، والشياطين على ضربين: جنّي، وإنسي، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (١) ﴿ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي ندوسهما بالأقدام انتقاماً منهما وتشفياً ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي ذلاً ومهانة، جزاء إضلالهم إيانا.

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ  
 أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أي قالوه اعترافاً بربوبيته، وإقراراً بوحدانيته  
 ﴿ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ أي ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، واستقاموا على توحيد  
 الله وطاعته. واعلم أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين: العلم  
 اليقيني، والعمل الصالح، ورأس المعارف اليقينية ورئيسها: معرفة الله،  
 وإليه الإشارة بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ ورأس الأعمال الصالحة أن  
 يكون الإنسان مستقيماً، غير مائل نحو الإفراط والتفريط، وإليه الإشارة  
 بقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ وكان الحسن البصري رحمه الله إذا تلا هذه الآية،  
 قال: «اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة» ﴿ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ من  
 جهته تعالى بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق  
 الإلهام، كما أن الكفرة يغويهم ما قبض لهم من قرناء السوء، بتزيين  
 القبائح، وقيل: تنزل عند الموت بالبشرى، وإذا قاموا من قبورهم،  
 والأظهر العموم ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ أي إن الله تعالى كتب لكم الأمن  
 من كل غم، فلن تذوقوه أبداً ﴿ وَأَبْشِرُوا ﴾ أي سروا ﴿ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ  
 تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على السنة الرسل، وهذا من بشاراتهم عند الموت،  
 والقبر، والبعث، وللملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية، بالإلهامات  
 والمكاشفات، كما أن للشياطين تأثيرات بإلقاء الوسواس، وولاية الملائكة  
 باقية تصير بعد الموت أقوى وأبقى، لأن جوهر النفس من جنس الملائكة،  
 وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا دَشْتُمُوهَا  
 أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أعوانكم في أموركم، نلهمكم الحق،  
 ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم في الدنيا، ولعل ذلك عبارة عما

يخطر ببال المؤمنين، المستمرين على الطاعة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ نمدكم بالشفاعة، ونتلقاكم بالكرامة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا نَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾ من فنون الطيبات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ما تتمنون من أنواع اللذائد والشهوات، وما تطلبه نفوسكم من كل ما يخطر ببالكم.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (٢٢).

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب العزة والجلال، وما يعطونه مما لا يخطر ببالهم، كالنزل للضيف، فما ظنك بما بعده من الألفاظ؟.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٣).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى توحيدهِ وطاعته، بقوله وفعله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ابتهاجاً بأنه منهم، واتخاذ الإسلام ديناً له.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤).

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة، في الآثار، والأحكام، والعاقبة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، كالإحسان إلى من أساء، فإنه أحسن من العفو ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي إذا فعلت ذلك، هنا صار عدوك المشاق، مثل الولي الشفيق، قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان عدواً فصار ولياً بالمصاهرة، واللفظ يقتضي العموم.

﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا ﴾ أي هذه الخصلة، التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان  
﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ،  
ونحو ذلك ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الخير، وكمال النفس .

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ  
الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ ﴾ أي وإن صرفك الشيطان عما وُصِّيت  
به، من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ من شره ولا تطعه ﴿ إِنَّهُ  
هُوَ السَّمِيعُ ﴾ باستعاذتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بِنَيْتِكَ وأفعالك .

﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ  
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ  
تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على شؤونه العظيمة ﴿ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ  
وَالْقَمَرُ ﴾ كل منها مخلوق من مخلوقاته، مسخرٌ لأمره ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ  
وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما من مخلوقاته مثلكم، وإنما قال ذلك، لأن أناساً  
يسجدون لهما ويعبدونهما من دون الله، وهم عبَاد الشمس ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ  
الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير للأربعة، أي واسجدوا للخالق الذي خلق هذه  
الأشياء وأبدعها ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجود أقصى مراتب  
العبادات، فلا بد من تخصيصه به سبحانه .

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ  
لَا يَسْعَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ عن الامتثال بالأمر ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي دائماً ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يفترون ولا يملون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ  
إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي يابسة، مستعاراً من الخشوع وهو التذلل ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي المطر ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ أي تحركت بالنبات، وقيل: تزخرفت ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿لَمُحْيٍ الْمَوْتِ﴾ بالبعث ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإحياء ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة، لا يُعجزه شيء من الأرض ولا في السماء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة، فالملحد هو المنحرف، وفي العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل، والمنحرف عن الدين ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ بالظعن فيها، والتحريف، والتأويل الباطل ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي لا يغيب أمرهم عنا، وهو تهديد فيجازيهم بالحادهم ﴿أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ الاستفهام بمعنى التقرير ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ من الأعمال المؤدية إلى الإلقاء في النار، وفيه تهديد شديد ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي كذبوا بالقرآن لأول وهلة، دون

أن يفكروا في آياته وإعجازه، وخبر «إن» محذوف للتسهيل، كأنه قال: سيجازون جزاءً لا يكاد يوصف لشدته وهوله ﴿وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ﴾ أي كثير المنافع، عديم النظير، منيع لا تتأتى معارضته.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢).

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، وقيل: معنى (الباطل) الزيادة أو النقصان ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هو منزل من إله حكيم في تشريعه، حميد أي محمود من عباده وخلقه، مستحق للحمد والثناء.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٣).

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسلية للرسول ﷺ عما يصيبه من أذية الكفار، أي ما يُقال في شأنك وشأن ما أنزل إليك، إلا مثل ما قد قيل في حق الرسل من قبلك، مما لا خير فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائه وأوليائه المؤمنين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، فقوض أمرك إليه، فإنه ينتقم لك منهم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٤٤).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم، لكان لهم أن يقولوا: كيف أنزلت الكلام العجمي إلى القوم العرب؟ أما لما أنزلناه بلغة العرب وهم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادعاء أن

قلوبكم في أكنة، وفي آذانكم وقر؟ ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي هلا بينت آياته بلسان نفقهه؟ ﴿ءَأَعْجَبُ وَعَرَبِيٌّ؟﴾ والمعنى: أكلام أعجمي، والرسول عربي؟ أو المرسل إليه عربي؟ فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أي وجه جاءتهم، وجدوا فيها متعنتاً وطعنأ يتعللون به ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن هادٍ للمؤمنين، يهديهم إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، وشفاء لهم من داء الجهل والضلالة، وكلُّ من آتاه الله تعالى طبعاً مائلاً إلى الحق، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين، فإن القرآن يكون في حقه هدى وشفاء، أما كونه هدى فلا أنه دليل على الخير، ويرشد إلى كل السعادات، وأما كونه شفاء فإنه شفاء له من مرض الكفر والجهل، وأما من كان في بحر الخذلان، وتائها في مفاوز الحرمان، ومشغولاً بمتابعة الشيطان، كان هذا القرآن في آذانه وقرأ، وعليه عمى، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَأَذَانِهِمْ وَقُرٌّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي ظلمة وشبهة ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر ﴿يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هذا تمثيل لهم في عدم استماعهم له، بمن ينادي من مسافة نائية، لا تُكادُ تُسمعُ من مثلها الأصوات.

﴿وَلَقَدْ ءَأْتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾

﴿وَلَقَدْ ءَأْتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ﴾ تسلية للرسول ﷺ بيان أن الاختلاف في شأن الكتب، عادة قديمة للأمم، غير مختص بها قومك، أي وبالله لقد آتينا التوراة لموسى، فاختلف فيها، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في أمتك المكذبة، وهي الوعد بتأخير عذابهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذبين، كما فعل بمكذبي الأمم السالفة

﴿وَأَيْنَهُمْ﴾ أي كفار قومك ﴿لَفِي شَكِّ مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُرِيبٌ﴾ أي موقع لهم في الشك والاضطراب.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ  
لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿فَلِنَفْسِهِ ۖ﴾ فنفع عمله لنفسه، لا لغيره ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره لا على غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله بتنزيل ترك إثابة المحسن، وتعذيبه بغير إساءة، منزلة الظلم، وما كان الله ليعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يؤاخذهُ إلا بجرمه، لأنه منزّه عن الظلم.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ  
أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا  
مِنْ شَهِيدٍ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي إليه سبحانه وحده، معرفة وقت القيامة، لا يعلمها إلا الله جل وعلا ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها جمع كُمَّ بالكسر، وهو وعاء الثمرة، والجمع لاختلاف الأنواع ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ حملها وجنينها في بطنها ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي تلد حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع، ملابساً بشيء من الأشياء، إلا ملابساً بعلمه المحيط، أي يعلم سبحانه بجزيئاته، مثلاً عدد أيام الحمل، وساعاته، وأحواله من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، ونحو ذلك، فإن قيل: أليس إن المنجمين قد يتعرفون كثيراً من أحوال العالم؟ قلنا إن أصحاب هذه العلوم، لا يمكنهم القطع، وإنما هم يظنون، والمذكور في هذه الآية الجزم واليقين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ﴾ أي بزعمكم، كما نص في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ

شركائي الذين زعمتم ﴿ وفيه تهكُّمٌ بهم ﴿ قَالُوا أَذَتْكَ ﴾ أي أخبرناك ﴿ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أي من أحد يشهد لهم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لَمَّا عاينا الحال، وما منا أحدٌ إلا وهو موحدٌ لك .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ ﴾ أي يعبدون ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ وَظَنُوا ﴾ أي أيقنوا ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ أي مهرب .

﴿ لَا يَسْتَعْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ لَا يَسْتَعْمُ ﴾ أي لا يملُ ولا يفتر ﴿ الْإِنْسَانُ ﴾ أي الكافر، بدليل قوله : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ ﴿ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أي من طلب السعة في النعمة، وأسباب المعيشة الهنيئة ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي العسر والضيق ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ وهذا وصف للجنس بوصف غالب أفراده، واليأسُ من رحمة الله كفر .

﴿ وَلَئِنْ أذَقْتَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أذَقْتَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ ﴾ بتفريجها عنه ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ أي حقي أستحقه، لما لي من الفضل والعمل ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي تقوم فيما سيأتي ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ على تقدير قيامها ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له، وأن نعم الآخرة كذلك ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقية ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ لا يقادر قدره، ولا يُبلغ كنهه .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ ﴾

عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ ﴾ عن الشكر ﴿ وَنَسَا بِجَانِبِهِ ﴾ أي ذهب

بنفسه، وتباعد بكليته، تكبراً وتعظماً، والجانب مجاز عن النفس، ويجوز أن يراد به ثنى عطفه ويكون عبارة عن الغطرسة والكبرياء ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي كثير، مستعار مما له عرضٌ متسع، للإشعار بكثرتِه واستمراره، وهو أبلغ من الطويل، إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله؟.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾

هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾

مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾؟ أي من أضل منكم؟ وضع الموصول موضع الضمير، تعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٧﴾ .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ﴾ الدالة على حقيقته وكونه من عند الله ﴿ فِي الْآفَاقِ ﴾

هو ما أخبرهم به الرسول ﷺ من الحوادث الآتية، وآثار النوازل الماضية، وما يسره الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب، على وجه خارق للعادة فإن قيل: إن استيلاء بعض البلاد، لا يدل على كون المستولي محقاً؟ قلنا: إنا لا نستدل بمجرد الاستيلاء، بل نستدل به من حيث إنه ﷺ أخبر، فهذا إخبار

عن الغيب ومعجزة ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي وفيما حلَّ بين أهل مكة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ﴾ القرآن ﴿الْحَقُّ﴾ لا ريب فيه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾؟ كلام وارد لتوبيخهم، أي أولم يكفهم برهاناً على صدقك، ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي ألم يغنهم عن إرائة الآيات المبيّنة لحقيّة القرآن، ولم يكفهم في ذلك، أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء؟.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ ﴿٥٤﴾ .

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي في شك عظيم من ذلك، يشكُّون بالبعث والجزاء ﴿أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي عالم بجميع الأشياء، يعلمها بتفاصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم لا محالة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خاتم النبيين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصلت»

\* \* \*

obeikandi.com

## سُورَةُ الشُّورَى

مكية وهي ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ \* عَسَقٌ ﴿٢﴾﴾

﴿حَمْدٌ \* عَسَقٌ﴾ اسمان للسورة ولذلك فُصِّلَ بينهما، وقيل: اسم واحد، والفصل ليناسب سائر الحواميم.

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مثل ما في هذه السورة من الآيات، أوحى الله إليك في سائر السور، وإلى مَنْ قَبْلَكَ من الرسل، لدعوة الناس إلى التوحيد، وما فيه صلاح العباد، والنبوة والمعاد، فلا تكن في شك من أمر الدين.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾

﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ استئناف مقرر لعزته وحكمته تعالى، أي جميع ما في الكون خلقه وملكه، وهو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالعظمة والكبرياء.

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ أي يتشققن من عظمة الله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من دعاء الولد، كما في سورة مريم (١) ﴿ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ أي يُبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها لما أن أعظم الآيات من تلك الجهة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ ﴾ ينزهونه عما لا يليق به متلبسين ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين، كما في آية أخرى ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهو عام يراد به الخاص، وقيل: هو على العموم، طمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق ﴿ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ إذ ما من مخلوق، إلا وله حظ عظيم، من رحمته تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي شركاء وأنداداً ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازي بها ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي لست بموكل بهم، أو بموكل إليك أمرهم، وإنما وظيفتك الإنذار .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لِأَرْبَابِ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ .

(١) وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إداً. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً. أن دعوا للرحمن ولداً. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً. ﴾ الآيات .

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء البديع ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ أي أهلها وهي مكة، سميت بهذا إجلالاً لها، لأن فيها البيت، والعرب تسمي أصل كل شيء أمّه ﴿ وَمَنْ حَوَّلَهَا ﴾ يعني بلاد الأرض كلها، من العرب والعجم، كما صرح به قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ الآية ﴿ وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أي يوم القيامة، لأنه يومٌ يجمع فيه الخلائق ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف، ثم يفرقون بعد الحساب إلى النعيم، أو الجحيم.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ  
وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ من يشاء أن يدخله فيها، ويدخل في عذابه من يشاء أن يدخله فيه، ومشيئته تعالى تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لاستعداده، فمن علم منه استحقاق الهدى يهديه، ومن علم منه اختيار الضلالة يضلّه، ولا جبر ولا إكراه على أحد ولا إجبار، بل هناك محض الاختيار ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾<sup>(١)</sup> ولهذا قال سبحانه ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ للإيدان بأن الإدخال في العذاب بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالى، والمعنى: لو شاء الله مشيئة قدرة، لقسرهم على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة، وبنى أمرهم على ما يختارون، ليدخل المؤمنين في رحمته، وترك الظالمون بغير ولي ولا ناصر، لسوء اختيارهم.

(١) سورة الكهف، آية: ٢٩.

﴿ أَرِ أَخْذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ فَاَللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِينَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ۝ ﴾

﴿ أَرِ أَخْذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ ﴾ أي بل اتخذوا متجاوزين الله، أولياء من الأصنام والأوثان؟ ﴿ فَاَللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن أرادوا ولياً، فالله هو الولي، لا وليّ سواه ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِينَ ﴾ كالتقرير لكونه حقيقةً بالولاية ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ دون من لا يقدر على شيء أصلاً.

﴿ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ۝ ﴾

﴿ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون، من أمور الدين أو أمور الدنيا ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي فالحكم فيه إلى الله جلّ وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بقضاء رسوله ﷺ ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ الحكيم العظيم الشأن ﴿ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أي مالكي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي في مجامع أموري خاصة، لا على غيره ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع إليه في كل ما ظهر لي من معضلات الأمور، لا إلى أحد سواه.

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ۝ ﴾

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خالقها ومبدعها ابتداءً على غير مثالٍ ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أي زوجات من آدميات ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام أصنافاً، وذكوراً وإناثاً، ﴿ يَذُرُّكُمْ ﴾ أي يكثركم بسببه بطريق التوالد، ولذلك خلق الذكر والأنثى، من الذرة بمعنى البث والنشر ﴿ فِيهِ ﴾ أي فيما ذكر من التدبير، فإن جعل الناس والأنعام أزواجاً، يكون بينهم توالد، كالمنع للتكثير

للنسل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس مثله، تعالى شيء، في شأن من الشؤون، التي من جملتها هذا التدبير البديع، والمراد من مثله ذاته تعالى، كما في قولهم: «مِثْلَكَ لَا يَفْعَلُ كَذَا» على قصد المبالغة، في نفيه عنه، أي ليس كذاته شيء جلّ وعلا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ المبالغ في العلم، بكل ما يُسمع ويُبصر، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ فمعناه: وله الوصف الأعلى، الذي ليس لغيره مثله، وهو وصف الجلال والكمال.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح أرزاق العباد ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء، ويضيّق على من يشاء ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في الإحاطة به.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

﴿شَرَعَ﴾ أي بيّن وأظهر ﴿لَكُم﴾ الخطاب للمسلمين من أمة محمد ﷺ، ﴿مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ من مشاهير الأنبياء عليهم السلام، على أن تخصصهم بالذكر لعلو شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليهم، لاتفاق الكل على نبوة بعضهم، فما من نبي إلا مأمور بما أمروا به، وهو عبارة عن التوحيد، ودين الإسلام، وما لا يختلف باختلاف الأمم والأعصار، ولم يرد الشرائع، فإنها مختلفة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَا جَا ﴿١﴾ ﴿أَنْ أَيْمُوا الدِّينَ﴾ أي دين الإسلام، الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسوله، وباليوم الآخر، وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً ﴿وَلَا تُفَرِّقُوا فِيهِ﴾ أي لا تختلفوا فيه كما اختلف اليهود والنصارى فضلوا وزاغوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض عبادة الأصنام، واستبعده حيث قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٢) ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ أي يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد، من هو أهل له، وفيه استعداد للخير والإيمان ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يجتبه إليه، وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي يقبل إليه حيث يمدّه بالتوفيق والألطف.

﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفَقَضْنَا بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بأن الفرقة ضلال، شروع في بيان أهل الكتاب، عقب الإشارة إلى أحوال أهل الشرك، وعن ابن عباس رضي الله عنه هم «اليهود والنصارى» أي ما تفرقوا في الدين، الذي دُعوا إليه، إلا من بعدما جاءهم العلم بحقيته، بما شاهدوا في رسول الله ﷺ والقرآن، من الدلائل الحقة، حسبما وجدوه في كتابهم ﴿بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً وحمية، وطلباً للرياسة، لا لأن لهم شبهة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإمهال ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَفَقَضْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجل الله لهم العقوبة في الدنيا، وأهلكهم بعذاب الاستئصال، لاستيجاب

(١) سورة المائدة، آية: ٤٨.

(٢) سورة ص، آية: ٥.

جناياتهم لذلك ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي وإن كفار مكة الذين أورثوا القرآن، من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم ﴿ لَفِي شَكِّ مِّنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع لهم في الريبة، ولذلك لا يؤمنون به .

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ .

﴿ فَلِذَلِكَ ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك، الذي حدث لأهل الكتاب ﴿ فَادْعُ ﴾ أي الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين، والعمل بموجبه، فإن تفرقهم، وكونهم في شك في الدين، سبب للدعوة إليه ﴿ وَاسْتَقِمْ ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وأوحى إليك ﴿ وَلَا تَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الباطلة ﴿ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أي كتاب من الكتب المنزلة، لا كأولئك الضالين الذين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في تبليغ الشرائع والأحكام، وفصل القضايا عند المحاكمة، والمعنى: أمرني ربي أن أعدل بينكم إذا تخصصتم إليّ ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ أي خالفنا جميعاً ومتولي أمورنا، لا يتخطانا جزاء أعمالنا، ثواباً كان أو عقاباً ﴿ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي لا محاجة ولا خصومة، لأن الحق قد ظهر وبان، كالشمس في رابعة النهار، ولا يبقى للمحاجة حاجة، سوى المكابرة ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم، فإن قيل: كيف يليق بهذه المجاورة، ما فعل بهم من القتل والإجلاء؟ قلنا: هذه كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين، المتفق على صحته بين كل الأنبياء، وفيه التوحيد، والإقرار بنبوة الأنبياء، والتصديق بالكتب المنزلة، فلما لم يقبلوا هذا الدين، فحينئذ فات الشرط، فلا جرم فات المشروط .

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَحِظَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ أي في دين الله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ ﴾ أي من بعد ما استجاب له الناس، ودخلوا في الإسلام، والمراد بالموصول ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ ﴾ اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونبوة موسى والتوراة، معلومة بالاتفاق، ونبوة محمد ليست متفقاً عليها ﴿ جَحِظَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجازاة معهم على زعمهم الباطل ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي عليهم غضب من الرحمن، وعذاب شديد في الآخرة .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبساً به في أحكامه وأخباره وتشريعه ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ والشرع العادل الذي توزن به الحقوق، ويسوى بين الناس ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أي أي شيء يجعلك عالماً ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ ﴾ التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿ قَرِيبٌ ﴾ أي قريب مجيئها، والمعنى: إنها على جناح الإتيان فاستمسك بالكتاب، واعمل به، وواظب على العدل .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استعجال إنكار واستهزاء ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أي خائفون منها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أي يجادلون فيها، من

المزينة بمعنى الشك ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، فإن قيام الساعة غير مستبعد، عن قدرة الله تعالى، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ أي بليغ البر بهم، يفيض عليهم من فنون لطفه، ما لا تكاد تناله أيدي الأفكار والظنون ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرزقه كيف يشاء، فيخصّ كلاً من عباده، بنوع من البر، على ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغلب.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، ويستعمل في ثمرات الأعمال، أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ نضاعف له ثوابه، إلى سبعمائة فما فوقها، ونزد له في تسهيل سبيل الخيرات والطاعات ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ وهو متاعها وطيباتها ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي شيئاً منها، حسبما قسمنا له، لا ما يريده، كما قال في سورة بني إسرائيل: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ إذ كانت همته مقصورة على الدنيا، فليس له حظ من الثواب، والنعيم في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾؟ أي بل لهم شركاء من الشياطين، والهمزة

للتقريب وللتقريب ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ بالتسويل والتزيين ﴿مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللهُ﴾ كالشرك والعصيان، وقيل: شركاؤهم، أي أوثانهم، وإضافتها إليهم، لأنهم الذين جعلوها شركاء لله، وإسناد الشرع إليها وهي جمادات إسناد مجازي، لأنها سبب ضلالهم وافتنانهم، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء، لعجلت لهم العقوبة ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المؤمنين والكافرين، بتعجيل العقوبة للكفار ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب موجه مؤلم يوم القيامة، والعذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ  
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ  
عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يوم القيامة، والخطاب لكل أحد ممن يصلح له ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من السيئات ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي وباله لاحقٌ بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي مستقرون في أطيب بقاعها، وأعلى منازلها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ما يشتهون من فنون المستلذات، حاصل لهم عند رب كريم ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من حال المؤمنين، أي ذلك النعيم ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك الذي أكرمهم الله به، هو النعيم الأكبر، الذي لا يقادر قدره.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ  
أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ  
شَكُورٌ﴾.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي يبشرهم به ربهم ﴿قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا من التبليغ والبشارة ﴿أَجْرًا﴾ أي نفعاً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي إلا أن تودوني لقرباتي منكم، وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لا أسألكم أجراً قط، لكن أسألكم المودة في القربى ﴿وَمَنْ يَتَرَفَّحَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يكتسب حسنة، نزد له في الحسنة حُسْنًا، بمضاعفة الثواب فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، ويشكر للمحسن إحسانه، والشكور المبالغ في الشكر، الذي يعتدُّ بالطاعة، ويجزل عليها الثواب الكبير.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ؟﴾ بل يقولون ﴿أَفَرَأَى﴾ أي اختلق محمد ﷺ ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة، وإنزال القرآن؟ والهمزة للإنكار التوبيخي، كأنه قيل أيتجروون أن ينسبوا مثله ﷺ إلى الافتراء، لا سيما الافتراء على الله، وهو أعظم الافتراء وأفحشه؟ فمثله لا ينسب إلى الكذب، مع اعترافهم له من قبل بالصدق والأمانة ﴿فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا، ببيان أنه صلى الله عليه وسلم لو افترى على الله، لمنعه من ذلك قطعاً، كأنه قيل: لو كان هناك افتراء عليه تعالى، وشاء عدم صدوره عنك، يختم على قلبك بحيث لا يخطر ببالك معنى من معانيه، وحيث لم يكن كذلك، بل تواتر الوحي، تبين أنه من عند الله تعالى ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يمحو الباطل، ويثبت الحق بوحيه، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ وهذا عدة لرسول الله ﷺ بأن الله يمحو الباطل الذي هم عليه، ويثبت الحق الذي هو القرآن ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيجري عليها أحكامها من المَحْوِ

والإثبات، والغرض من الآية أنك لو افترت على الله الكذب - - كما يزعم المجرمون - لختمنا على قلبك، فأنسيناك هذا القرآن، وسلبناه من صدرك، ولكنك لم تفر على الله كذباً، ولهذا أيدناك وسدّدناك!! ففي الآية تكذيب لدعوى المشركين.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ أي هو سبحانه بفضلته وكرمه، يتقبل التوبة من عباده، إذا أفلحوا عن المعاصي، وأنابوا إلى الله بصدق وإخلاص، كما ورد في الحديث الشريف «إن الله عزّ وجلّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغ»<sup>(١)</sup>. ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ كائناً ما كان، فهو الرقيب المطلع على الأعمال، وسيجازيكم عليها.

﴿ وَاسْتَجِبْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَلْكَفَرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

﴿ وَاسْتَجِبْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي يستجيب الله لهم دعاءهم، كما استجابوا لطاعته، والمراد بإجابة دعائهم: الإثابة على طاعتهم ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد، والتخصيص بالمؤمنين هل يدلّ على أنه تعالى لا يجيب دعاء الكافر؟ قيل: نعم، لأن الإجابة تعظيم، وقيل: يجوز لقوله تعالى: ﴿ أم من يجيب المضطر إذا دعاه ﴾؟ وفائدة التخصيص، أن إجابة دعاء المؤمنين، تكون على سبيل

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٥٣١ وقال: حديث حسن، والغرغرة أن تصل الروح إلى الحلقوم، عند الموت والاحتضار.

التشريف، وإجابة ودعاء الكافرين، على سبيل الاستدراج ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لتكبروا وأفسدوا، ولعلا بعضهم على بعض، بالاستيلاء، كما عليه الجبلة البشرية ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ أن ينزله، مما تقتضيه مشيئته ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي محيط بخفايا أمورهم، فيقدر لكل واحد منهم ما يليق بشأنه، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، حسبما تقتضيه الحكمة، وقد قيل: ثلاثة ليس لها نهاية: الأمن والصحة والكفاية.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجذب، ولذلك حُصِرَ الغيثُ بالنافع منه، فإن المطر قد يضرُّ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي يسوا منه، وتقييده بذلك، مع تحققه بدونه أيضاً، لتذكر كمال النعمة، فإن حصول النعمة بعد اليأس أوجب لكمال الفرح، وأدعى للشكر، ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء، من السهل، والجبيل، والنبات، والحيوان ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بالإحسان، ونشر الرحمة ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد لا غيره، وقيل لعمر رضي الله عنه: اشتد القحط، وقلبت الناس، فقال: مُطَرُوا، أراد هذه الآية.

﴿وَمَنْ أَيْدِيهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ على ما هما عليه من تعجيب الصانع، فإنها تدل على شؤونه العظيمة ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي من حي فيما يدب على الأرض، أو يطير في الجو، وهذا يشمل الإنس، والجن، والملائكة، وقد يجوز أن يكون للملائكة مشي مع الطيران، فيوصف بالدبيب، والدبيب في اللغة: المشي الخفيف ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ ﴾ أي على حشرهم بعد البعث ﴿ إِذَا يَشَاءُ ﴾ أي في الوقت الذي يشاء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ متمكن منه، لا يعجزه شيء.

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي مصيبة كانت، فهي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، والخطاب مع من يفهم ويعقل، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال ﴿ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ من الذنوب، فلا يعاقب عليها، والآية مخصوصة بالمجرمين، فإن ما أصاب غيرهم لأسباب آخر، منها تعريضه للثواب، بالصبر عليه، عن علي رضي الله عنه أنه قال: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن، لأن الكريم إذا عاقب مرة، لا يعاقب عليه ثانياً.

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ولستم فائتين من عذاب الله، ولا هارين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يحميكم منها ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفعها عنكم وفي الحديث الشريف

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيبُ المؤمنَ شوكَةٌ فما فوقها، إلا رفعه الله بها درجةً، وحطَّ عنه بها خطيئة»<sup>(١)</sup>.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ ﴾ السفن الجارية ﴿ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴾ أي كالجبال وكلُّ شيء مرتفع عند العرب فهو علم.

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ التي تجريها ﴿ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ۗ ﴾ أي فيبتين ثوابت على ظهر البحر، أي غير جاريات ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر من تسيير السفن الضخمة فوق سطح الماء ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في العدد، دالة على ما ذكر من شؤونه تعالى ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي لكل مؤمن صابر شاکر، فإن الإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر.

﴿ أَوْ يُوقِنَهُنَّ يَمَّا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ .

﴿ أَوْ يُوقِنَهُنَّ ﴾ أي يرسلها، عواصف فيغرقن مع ركبها ﴿ يَمَّا كَسَبُوا ﴾ من الذنوب، وإيقاع الإيقاع عليهن، مع أنه حال أهلن، للمبالغة والتهويل ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أي ينجي آخرين، بطريق العفو عنهم.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٩٠/١٠ في المرضى باب ما جاء في كفارة المرض، ومسلم رقم ٢٥٧٢.

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِيصٍ ﴾ (٣٥)

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ عطف على علة مقدره، أي لينتقم منهم ويعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، إذا توسطوا البحر، وغشيتهم الرياح من كل جانب ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَخِيصٍ ﴾ أي لا ملجأ لهم، ولا مهرب من العذاب.

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣٦)

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ مما ترغبون وتتنافسون فيه ﴿ فَمِنَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي فهو متاعها، تتمتعون به مدة حياتكم ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ لخلوص نفعه ودوامه ﴿ وَأَبْقَى ﴾ زماناً حيث لا يزول ولا يفنى ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا على غيره، فإنهم يعتمدون على الله وحده.

﴿ وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (٣٧)

﴿ وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ ﴾ أي الجرائم الكبيرة ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ أي الزنى ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي يصفحون عمّن أساء إليهم وأغضبهم، وبناء «يغفرون» على ضميرهم للدلالة على أنهم الأحقاء بالمغفرة، لعزة منالها.

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٣٨)

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي استجابوا لأمر ربهم، بالإيمان

والتوحيد، نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله إلى الإيمان فاستجابوا له ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ﴾ أي لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ﴿وَمِمَّا زَقَنَهُمْ يَنْفِقُونَ﴾ أي في سبيل الخير.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٣٩).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، من فرط تدبرهم وتيقظهم، كراهة التذلل للأعداء، وهو وصفهم بالشجاعة، بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران، فإن كلاً منهما فضيلة محمودة في موقع، ورذيلة مذمومة في موقع، فإن الحلم عن العاجز محمود، وعن الظالم المتغلب مذموم، وعليه قول الشاعر:  
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرداً

بين الله تعالى أن هذه الخيرية، إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات عديدة:

١ - أن يكون من المؤمنين. ٢ - من المتوكلين على الله. ٣ - من المجتنبين للفواحش. ٤ - من المنقادين لأمر الله. ٥ - من المنتصرين لدينه.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الظالمين﴾ (٤٠).

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ بيان لوجه كون الانتصار من الفضائل الحميدة، مع كونه في نفسه إساءة إلى الغير، بالإشارة إلى أن البادي هو الذي فعله لنفسه، فإن الأفعال مستتعبة لأجزيتها حتماً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه تنبيه على حرمة التعدي، وإطلاق السيئة على الثانية،

لأنها تسوء من نزلت به<sup>(١)</sup> ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء إليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين من يعاديه، بالعمو والإغضاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عِدَّةٌ مبهمَةٌ، منبئة عن عظم شأن الموعود ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي البادئين بالسيئة، والمعتدين في الانتقام.

﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي بعد ما ظلم دون عدوان ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم عقوبة ولا مؤاخظة، لأنهم فعلوا ما أباح لهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي إنما المؤاخظة والعقوبة على الذين يبدؤون بالعدوان، أو يعتدون في الانتقام، ويتكبرون على عباد الله، تعجباً وفساداً ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر، من الظلم والبغي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ لمن ظلمه، ولم ينتصر لنفسه، وفوض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي من فضائل الأعمال التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، وهذه في الأمور التي لا يؤدي العفو فيها إلى الشر، كمن اعتاد العدوان على الناس، فإن

(١) مقابلة السيئة بالسيئة، لكيلا يتبجح الشرُّ ويطغى، حين لا يجد من يردعه عن الظلم والعدوان.

العفو عنه يزيد في ضلاله وطغيانه، بل يجب أن يُردع ويُزجر، بعقاب يكفّه عن الظلم والعدوان.

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ ﴿٤٤﴾ ۞ .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من ناصر يتولاه، من بعد خذلانه تعالى إياه ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أي حين يرونه، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي يسألون ربهم، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا قائلين ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ ﴾ أي إلى رجعة ﴿ مِنْ سَبِيلِ ﴾؟ حتى تؤمن، ونعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل؟.

﴿ وَتَرَبُّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ۞ .

﴿ وَتَرَبُّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار، والخطاب في الموضوعين لكل من يتأتى منه الرؤية ﴿ خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾ أي متذللين متضائلين ممّا دهاهم ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أي يسارقون النظر خوفاً وفزعاً، يبتدون نظره إلى النار، من تحريك لأجفانهم ضعيف، كالمصبور ينظر إلى السيف، فإن قيل: أليس إنه تعالى قال: إنهم يُحشرون عمياً؟ قلنا يكونون في الابتداء هكذا، ثم يُجعلون عمياً يسحبون إلى جهنم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ ﴾ أي المتصفين بحقيقة الخسران ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ ﴾ أي ضيّعوا أنفسهم وأهلهم بالتعريض للعذاب الخالد ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ هذا من تمام كلام المؤمنين، أو تصديق من الله تعالى لهم، أي انتبهوا فإن الظلمة المشركين، في عذاب دائم لا ينقطع.

﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ برفع العذاب عنهم، حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي غيره تعالى ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ يؤدي سلوكه إلى نجاة في الدارين، لأنه انسدت عليه طرق النجاة، فكيف يهتدي إلى طريق السعادة، وقد حاد عن هداية الله؟ .

﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّن مَّالٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ أي أجبوا ربكم إذا دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيه، قبل أن يأتي من الله يوم شديد رهيب ﴿ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي لا يردّه الله بعدما حكم به، وهو يوم القيامة ﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّالٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي من مفرّ تلتجئون إليه حينئذ ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي من إنكار لما اقترفتموه، لأنه مدون في صحائف أعمالكم، وتشهد به عليكم جوارحكم، وقيل: المعنى: ليس لكم من ينكر ما ينزل بكم من العذاب، لا من أنفسكم ولا من غيركم، لأن أحداً لا يملك الاعتراض على الله جلّ وعلا .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أي فإن لم يستجيبوا، وأعرضوا عما تدعوهم إليه ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي رقيباً أو محاسباً لهم على أعمالهم ﴿ إِنْ ﴾

عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَّغُ ﴿١﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ رسالة ربك، وقد فعلت ﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ (١) أي نعمة من الصحة، والغنى، والأمن ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي بطر وتكبر، وأريد بالإنسان الجنس، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلاء من مرض، أو فقر، أو خوف ﴿يَمَاقَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي مبالغ في الكفران لنعم المولى جل وعلا، ينسى النعمة حالاً، ويذكر البلية ويستعظمها، ولا يتأمل سببها، بل يزعم أنه أصابه بغير استحقاقٍ لها.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما، وفي كل ما فيهما كيفما يشاء، بالخلق والإيجاد ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ مما نعلمه ومما لانعلمه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً﴾ من الأولاد ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ منهم، من غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد أصلاً.

(١) أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الجحود لنعم الرحمن، فهو يبطر عند حصول النعمة، ويضجر عند فواتها وزوالها، وفي الآية سرٌّ بديع من لطائف الأسرار البيانية، فإن «إذا» تفيد التحقيق، و «إن» تفيد الشك، فذكر تعالى النعمة بقوله: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان﴾ للإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول، بخلاف النعمة والبلاء فإنه على الشك والتقليل، ولهذا قال سبحانه ﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني على فرض حصول السيئة كالمرض، والفقر، والبلاء، فإن الإنسان كافر جاحد لنعمة الله، فالنعمة محققة الوقوع، والنقمة محتملة النزول، ونعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة وجليلة، ولكنها بالنسبة إلى نعيم الآخرة تافهة وحقيرة، كالقطرة بالنسبة إلى البحر، ولذلك سمّاها الله عزّ وجلّ ذوقاً ﴿إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ فبه تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الضئيل الحقير في الدنيا، فإنه يفرح بها ويعظم غروره، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، وذلك لجهله بحال الدنيا، وبحال الآخرة، فافهم أسرار القرآن.

﴿ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَبَجَعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً ﴾ أي يقرن بين الصنفين، فيهبهما جميعاً، فيجمع للإنسان بين البنات والبنين، والذكور والإناث ﴿ وَبَجَعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً ﴾ يعني يجعل أحوال العباد، في حق الأولاد، مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فيهن، ولعل تقديم الإناث، لأنهن أكثر، لتكثير النسل، أو لتطيب قلوب آبائهن ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة<sup>(١)</sup>، والعقم يطلق على الذكر والأنثى، فقد يكون الرجل عقيماً لا يأتيه أولاد، وقد تكون المرأة عقيماً لا تلد، وليس العقم خاصاً بالنساء.

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر ﴿ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إِلَّا وَحِيًّا ﴾ بأن يوحى إليه، ويلهمه ويقذف في قلبه، كما أوحى إلى أم موسى، أو بأن يسمعه كلامه من غير أن يبصر السامع من يكلمه، وهو المراد من قوله: ﴿ أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ ﴾ فإنه تمثيل له بحال المَلِكِ المحتجب، الذي يكلم بعض خواصه، من وراء الحجاب، يسمع صوته ولا يرى شخصه، كما كلم موسى، وهذا أيضاً وحي، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ أو بأن يكلمه بواسطة المَلِكِ وذلك قوله تعالى:

(١) ليست السعادة في أن يرزق الله الإنسان ذكراً أو أنثى، وإنما السعادة في صلاح الأولاد ونجاتهن، ليكونوا قرة عين لآبائهن، وقد أحسن الشاعر حين قال: نَعْمُ الإِلهِ عَلَى العِبَادِ كَثِيرَةٌ وَأَجْلُهُنَّ نَجَابَةٌ الأَوْلَادِ

﴿أَوْرِسِلَ رَسُولًا﴾ أي ملكاً ﴿فِيُوحَى﴾ ذلك الملك إلى المرسل إليه، الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يوحى إليه، وهذا هو الذي يجري بينه تعالى، وبين الأنبياء عليهم السلام، في عامة الأوقات ﴿إِنَّهُ عَلِيُّ﴾ متعال عن صفات المخلوقين، لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم، إلا بأحد الوجوه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على سنن الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، والأخرى بدونها، إما إلهاماً وإما خطاباً، وسبب نزول هذه الآية، أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألا تكلم الله، وتنظر إليه، كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فنزلت الآية ردّاً عليهم ذلك الافتراء، فما رأى موسى ربه ولا نظر إليه، وإنما سمع كلامه من وراء حجاب ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وحين طلب موسى رؤية ربه ﴿قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾ الآية.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هو القرآن، الذي هو للقلوب، بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة أبدية ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ قبل الوحي ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ أي أي شيء هو؟ ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي الإيمان بتفاصيل الأمور، التي لا تهتدي إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل، لأنه ﷺ قبل النبوة كان يوحد الله تعالى، ولا يأكل ما ذُبح على النصب، ويُبغض الأصنام، وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام، ولم يتبين له شرائع دينه، إلا بعد الوحي إليه ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي الروح الذي أوحيناه إليك ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ هدايته ﴿مِّنْ عِبَادِنَا﴾ هو الذي يصرف اختياره، نحو الاهتداء به ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ﴾ أي وإنك يا محمد، لتدل وترشد الناس ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، دين الله الخالد!! .

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ  
الْأُمُورُ ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي ﴾ بدل من الأول، وإضافته إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنه، وتأكيد وجوب سلوكه ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي له كل ما في الكون ملكاً، وخلقاً، وعبداً ﴿ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أي أمور ما فيهما، لا إلى غيره، ففيه من الوعد للمهتدين، والوعيد للضالين الظالمين. والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»

\* \* \*

## سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مكية وهي تسع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ .

﴿حَمْدٌ﴾ \* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي أقسم بالقرآن البين الواضح الجلي .

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي جعلنا ذلك الكتاب، قرآنًا عربيًّا، لكي تفهموه، وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، وتقفوا على ما يتضمّنه، من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة في ذلك .

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي في اللوح المحفوظ، فإنه أصل الكتب السماوية ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا ﴿لَعَلِيَّ﴾ أي رفيع القدر، بين الفضل ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، ومكانة فائقة، وفي الإقسام بالقرآن على علو قدره، براعة بديعة، وإيدان بأنه من علو الشأن، بحيث لا يحتاج في بيانه،

إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره، بل هو بذاته كافٍ في الشهادة على ذلك، من حيث الإقسام به، كما أنه كافٍ فيها من حيث إعجازه.

وبعدما بيّن علو شأن القرآن، وحقّق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به، ويعملوا بموجبه، عقّب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه، فقال سبحانه:

﴿أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾

﴿أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ﴾ أي أنهلمكم فننحّي الذكر عنكم، ونعتبركم كالبهائم، فلا نعظّمكم ولا نذكركم بالقرآن؟ وفيه إشعار باقتضاء الحكمة، توجه الذكر إليهم، وملازمته لهم، كأنه يتهافت عليهم ﴿صَفْحًا﴾ أي إعراضاً عنكم ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ أي لأجل إسرافكم في المعاصي والإجرام، ومجاورتكم الحدّ في الضلالة، على معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم، حتى تموتوا على الكفر والضلالة، لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق، بإرسال الرسول الأمين، وإنزال الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ تقرير لما قبله، بيان أن إسراف الأمم السالفة، لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم لهدايتهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ، أي هذه عادة الأمم الضالين، ما جاءهم رسول إلا سخروا منه واستهزؤوا، فلا ينبغي أن تحزن وتتأذى من قومك، بسبب تكذيبهم لك.

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأُولَىٰ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أي من هؤلاء المسرفين، وصفهم بالبطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية، أي كانوا أعتى وأطغى من قومك كفار مكة، ومع ذلك أهلكهم الله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأُولَىٰ ﴾ أي سلف في القرآن قصتهم، وفيه وعد ووعد<sup>(١)</sup>

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ أي يُسندن خلقها إلى من هذا شأنه، في الحقيقة ونفس الأمر، لا أنهم يعبرون عنه بهذا العنوان، وسلوك هذه الطريقة، للإشعار بأن اتصافه تعالى بجلائل الصفات، وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء، أمرٌ بيِّنٌ لا ريب فيه، وأن الحجة قائمة عليهم، شاؤوا أو أبوا، والمقصود بيان أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى، يعبدون غيره جهلاً منهم وسفهاً، وينكرون قدرته على البعث والجزاء، فإذا سئلوا عن خلق السموات والأرض، اعترفوا بأن الخالق هو الله، ثم هم يعبدون غيره.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ .

(١) الغرض من الآية أن الله عزَّ وجل لا يترك هؤلاء الكفار، على كفرهم وفجورهم، وضلالهم، دون أن يبعث إليهم من ينصحهم ويذكّرهم، رحمة بهم، وإن كانوا هم معرضين عن الإيمان، مسرفين في العصيان، لأن لطف الله ورحمته بالعباد، تقتضي التذكير والتبصير، قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفِعَ، حين رده أوائل هذه الأمة، لهلكوا جميعاً، ولكن الله برحمته كرّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة!! .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي بسطها لكم تستقرون فيها،  
وتبنون وتنامون ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي طرقاً تسلكونها في أسفاركم  
﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكر  
إلى التوحيد الذي هو المقصد الأسمى.

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ  
نُخْرِجُونَ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ أي بمقدار تقتضيه مشيئته، المبنية  
على الحكيم والمصالح، ويقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ ﴾  
أي أحيينا بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَيِّتًا ﴾ أي خالياً عن النماء والنبات، مقفراً من  
الزروع والشمر ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإحياء، وهو إخراج النبات من  
الأرض ﴿ نُخْرِجُونَ ﴾ أي نُبعثون من قبوركم أحياء.

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا  
تَرْكَبُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي أصناف المخلوقات، من الحيوان  
والنبات، وكل ما سوى الله تعالى فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين  
واليسار، والذكر والأنثى ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي ما  
تركبونه تغليبا للأنعام على الفلك، فإن الركوب متعدد بنفسه.

﴿ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكُّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا  
سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ أي لتستعلوا على ظهور ما تركبونه، من السفن  
والأنعام ﴿ ثُمَّ تَذَكُّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي تذكروها بقلوبكم معترفين

بها، ثم تحمدوا ربكم عليها بألستكم ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مطيقين، قال أبو عبيدة: فلان مقرن لفلان أي ضابط له، أي ما كنتم مطيقين لها وضابطين لحركاتها، لولا تسخير الله عزَّ وجل.

﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ أي راجعون، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير، ويتذكر منه المسافرة العظمى، التي هي الانقلاب إلى الله تعالى، فيبني أموره على تلك الملاحظة، فإن الإنسان لا يزال في سفر، حتى يستقر به القرار، إما في الجنة أو في النار.

روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر، حمد الله تعالى، وسبَّح وكبر ثلاثاً، ثم قال: «سبحان الذي سَخَّرَ لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا، البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هَوِّنْ علينا سفرنا هذا، واطوِّ عَنَّا بُعْدَهُ، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب، في الأهل والمال»<sup>(١)</sup>.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ أي وقد جعلوا له سبحانه، بعد ذلك الاعتراف بخلق السموات والأرض ولدأ، وإنما عبر بالجزء، لمزيد استحالته في حق الواحد الأحد، من جميع الجهات، والمقصود منه التنبيه على سخافة عقولهم، وقلة محصولهم ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر الكفران، مبالغ فيه، ولذلك يقولون ما يقولون.

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٤٢، والترمذي رقم ٣٤٤٤، وأبو داود رقم ٢٥٩٩.

﴿ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾؟ هذا بيان لبطلان جعلهم ذلك الولد من أحسن صنفه في نظرهم، والهمزة للإنكار والتعجب منهم ﴿ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾؟ أي واختار لكم أفضلهما؟ وتنكير «بنات» وتعريف البنين، لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة، والفخامة، أي هل خصصكم واختار لكم البنين، واتخذ لنفسه البنات؟ ما لكم كيف تحكمون؟ أفلا تعقلون؟ .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ أي وإذا بشر أحدهم بالأثني، التي نسبها إلى الله وجعلها له مثلاً ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من سوء ما بُشِّرَ به ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوء من الكرب والكَآبَة كأنه فعل جريمة يستحق العقاب عليها.

﴿ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْهِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْهِلْيَةِ ﴾ أي أوجعلوا ما شأنه أن يُرَبِّي في الزينة، وهو عاجز عن أن يتولى أمره بنفسه؟ ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ ﴾ أي في الجدل الذي لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي غير قادر على تقرير دعواه، وإقامة حجته، لنقصان عقله، وضعف رأيه؟ .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ بيان لتضمن كفرهم المذكور، لكفر آخر، وهو جعلهم الملائكة الذين هم أكمل الخلق، وأكرمهم

وأكرمهم على الله إنائاً، ونسبتهم إلى الله حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وهؤلاء كفروا بثلاثة أشياء: ١ - بإثبات الولد لله، ٢ - وبأن هذا الولد بنت، ٣ - والحكم على الملائكة بالأنوثة ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾؟ أحضروا خلق الله إياهم، فشهدوهم إنائاً حتى يحكموا بأنوثتهم؟ وهو تجهيل لهم وتهكم بهم ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ﴿وَسْئَلُونَ﴾ يوم القيامة عن هذا الكذب والافتراء.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي لو شاء عدم عبادتنا للملائكة ما عبدناهم، أرادوا بذلك أن ما فعلوه حق، مرضي عند الله تعالى، وأنهم إنما يفعلونه بمشيئته تعالى، ﴿مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ أي بما أرادوا بقولهم الباطل ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يستند إلى سندٍ ما ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون لأنهم أرادوا بالمشيئة الرضا، أو قالوا هذا القول استهزاء لا اعتذاراً، وجعلوا المشيئة حجة لهم، وظنوا أن الله تعالى لا يعذبهم على أي شيء فعلوه ولما أظهر وجوه فساد دعواهم من طريق العقل، أضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم من جهة النقل، فقال تقدست أسماؤه:

﴿أَمْ أَلَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾

﴿أَمْ أَلَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن، ينطق بصحة ما يدعون؟ ﴿فَهُمْ بِهِ﴾ بذلك الكتاب ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وعليه معولون.

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي على طريقة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ

ءَأَثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ أي لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية، سوى تقليد آباؤهم الجهلة مثلهم، تقليداً أعمى، دون بصر ولا نظر.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا  
ءَأَبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَأَثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي الأمر كما ذكر من تشبههم بذييل التقليد ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَأَبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَأَثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ استئناف مبيِّنٌ بأن التقليد ضلالٌ قديم، وتخصيص المترفين للإيذان بأن التمتع، وحب الرئاسة، هو الذي صرفهم عن النظر، إلى فساد التقليد.

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَأَبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا  
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿قَالَ﴾ أي قال كل نبي لأمته ﴿أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ﴾ أي أتقتدون بآبائكم الجهلة ولو جئتم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ بدين أهدى وأرشد ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَأَبَاءَكُمْ﴾؟ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء، وإنما عبر عنها بذلك مجازاة معهم على سلك الإنصاف ﴿قَالُوا﴾ أي قالت كل أمة لنبِيِّهَا ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ قبل أن ينظروا ويتفكروا فيه، إقناطاً للنذير.

﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم على الكفر والضلال بالاستتصال ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ فلا تكثر بتكذيب قومك .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي واذكر لهم وقت قال ﴿إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ براءٌ مصدر نعت به بمبالغة، يستوي فيه الواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، أي إنني بريء من عبادتكم ومعبودكم.

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع، أي غير الذي فطرني ﴿فَأَبْتَهُ﴾ سَيِّدِي ﴿أَي يَرشُدُنِي لِدِينِهِ، وَيُوفِقُنِي لَطَاعَتِهِ، وَسَيِّبَتُنِي عَلَى الْهَدَايَةِ، وَالسَّيْنِ لِلتَّأَكِيدِ دُونَ التَّسْوِيفِ، وَصِيغَةُ الْمَضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ .

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي جعل إبراهيم عليه السلام «كلمة التوحيد» التي تكلم بها ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي في ذريته حيث وصّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ﴾ الآية فلا يزال فيهم من يوحد الله، ويدعو إلى توحيده ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي جعلها باقية في عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾ بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول ﷺ من أهل مكة ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ بالمد في العمر والنعمة، ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم، فاغترؤوا بالمهلة، وانهمكوا بالشهوات، وغفلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة بالمعجزات الباهرة، وكان الواجب أن يجعلوه سبباً لزيادة الشكر، فجعلوه سبباً لزيادة الكفر.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ ازدادوا كفراً وعتواً، وضمّوا إلى كفرهم معاندة الحق، والاستهانة به، حيث ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ فسمّوا القرآن سحراً، واستحقروا الرسول ﷺ، وكذبوه.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ ؟ أي من إحدى القريتين مكة أو الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ أي بالمال والجاه، كالوليد بن المغيرة من مكة، و«عروة بن مسعود» من الطائف، ولم يتفوهوا بهذه العظيمة، حسداً على نزوله على الرسول ﷺ دون عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته، بل استدلالاً على عدمها، بمعنى أنه لو كان قرآناً، لنزل على هؤلاء، بناءً على أن منصب الرسالة منصب جليل، لا يليق إلا بمن له جلالة، من حيث المال والجاه، ولم يدروا أنها وثبة روحانية، لا يترقى إليها إلا خواص المختصين، بالنفوس الزكية، أما المتمتعون بالحظوظ الدنيوية، فهم من استحقاق تلك الرتبة بألاف منزل، قال الله تعالى رداً عليهم .

﴿أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿أَهْرَ يَقْسِمُونَ﴾ ؟ إنكارٌ فيه تجهيلٌ لهم، وتعجيب من تحكّمهم في شؤون الوحي ﴿رَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ ؟ أي النبوة يعني أيدهم مفاتيح الرسالة والنبوة، فيضعونها حيث شاؤوا؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي أسباب معيشتهم، قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكّم والمصالح، ولم نفوض أمرها إليهم، فمن أين لهم أن يتحكّموا في أمر النبوة، التي

هي أعلى المراتب وأقدسها؟ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وسائر مبادئ المعاش ﴿دَرَجَاتٍ﴾ متفاوتة، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيف وقوي، وفقير وغني، وحاكم ومحكوم ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم، حتى يتعاشوا ويصلوا إلى مرافقهم، لا لكمال في الموسع، ولا لنقص في المقتر، ولو فوضنا أمرها إلى تدبيرهم لهلكوا ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ﴾ أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، لأن منافع الدنيا على شرف الانقضاء، وثمرات الرحمة تبقى أبد الأباد!!.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بيان لحقارة متاع الدنيا، ودناءة قدره، عنده عز وجل، والمعنى: إن حقارة شأن المتاع، بحيث لولا أن يرغب الناس، لحبهم الدنيا في الكفر، إذا رأوا أهلها في سعة وتنعم، فيجتمعوا عليه، لأعطيناه بحدافيره، من هو شرُّ الخلاق، وأدناهم منزلة، وذلك قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي للكفار خاصة ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ أي متخذة منها ﴿وَمَعَارِجَ﴾ من فضة، أي مصاعد إلى المساكن العالية، كالدرج والسلالم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون السطوح والعلالي.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكَبُونَ﴾ ﴿٣٤﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي وجعلنا لبوتهم ﴿أَبْوَابًا وَسُرُورًا﴾ من فضة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على السرر ﴿يُتَّكَبُونَ﴾ تكرير ذكر «بيوتهم» لزيادة التقرير.

﴿ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ  
لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿ وَزُخْرَفًا ﴾ أي وزينة عظيمة من كل شيء، من الذهب، والفضة  
وسائر أنواع الجواهر ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي وما كل ما  
ذُكر إلا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا عما قريب يزول ﴿ وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ  
لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي والآخرة وما فيها من أنواع الملاذ والنعم للمؤمنين المتقين،  
الذين يتقون الكفر والمعاصي، فتبيّن بهذا أن المال والجاه، حقيران عند الله  
تعالى، وأنهما على شرف الزوال، وأن العظيم هو العظيم في باب التقوى،  
والإيمان، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا عند الله، تزن جناح  
بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء»<sup>(١)</sup> فإن قيل: لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ أَنَّهُ لَوْ فَتَحَ  
عَلَى الْكَافِرِينَ أَنْوَاعَ النِّعَمِ، لَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَى الْكُفْرِ، فَلَمْ  
لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ؟ قُلْنَا: لِأَنَّ النَّاسَ  
عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، كَانُوا يَجْتَمِعُونَ لَطَلْبِ الدُّنْيَا، فَهَذَا إِيمَانُ الْمُنَافِقِينَ، فَلَا بَدَّ  
أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ، يَدْخُلُ لَطَلْبِ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى وَثَوَابِهِ،  
فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُسْلِمًا صَادِقًا فِي دِينِهِ، وَأَمَّا فِي طَلْبِ الدُّنْيَا فَلَا يَظْهَرُ حَقِيقَةُ  
إِسْلَامِهِ .

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ وَمَنْ يَعْشُ ﴾ أي يتعام، يقال: عَشَى يَعْشَى إذا كان في بصره آفة،  
وَعَشَى يَعْشُو إذا تعامى بلا آفة ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ وهو القرآن، وإضافته إلى  
«الرحمن» للإيذان بنزوله رحمة للعالمين، والمعنى: ومن يتعام ويعرض  
عن القرآن، لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا، وانهماكه في الشهوات،

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢١ وقال: حديث حسن صحيح .

﴿نُقِضَ لَهُ﴾ أي نضم إليه ونسلط عليه ﴿شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي فهو له ملازم، ومصاحب لا يفارقه، ولا يزال يوسوس إليه ويغويه، والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا، وذلك أن من حاز المال والجاه، صار كالأعشى عن ذكر الله، وإذا ازداد حبهما زاد العشى حتى يصير كالعمى.

﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي الشياطين المضلين ﴿لِيَصُدُّوهُمْ﴾ أي قرناءهم ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ المستبين الذي يدعو إليه القرآن الكريم ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي ويظن الكفار ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ إلى سبيل مستقيم، وإلا لما اتبعوهم<sup>(١)</sup>.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسُ الْقُرَيْنِ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي كل واحد منهم، مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ أي قال الكافر مخاطباً لقرينه ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب، أي تباعد كل منهما عن الآخر، فغلب ههنا المشرق على المغرب ﴿فَيَنسُ الْقُرَيْنِ﴾ أنت، وقوله: ﴿وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ، من جهة الله عز وجل، توبيخاً.

﴿وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَتُكْرَفُونَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة تمنيكم ﴿إِذ ظَلَمْتُمْ﴾ أي

(١) الأظهر أن الضمير يعود إلى الكفار أنفسهم، أي وإن الكفار يظنون أنهم مهتدون باتباعهم طريق الشياطين.

لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي ﴿أَتَكْفُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي اشتراككم في العذاب، كما كنتم مشتركون في سببه في الدنيا، على معنى: أن اشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم البلاء، لأن المكروب يجد راحة التأسى بغيره، وهؤلاء لا يجدون ذلك، فقد حُرِّموا أهون أنواع العزاء.

﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ﴾ كان ﷺ يبالي في المجاهدة لدعوة قومه، وهم لا يزيدون إلا غيًّا وتعامياً، عما يشاهدونه من شواهد النبوة، فنزلت هذه الآية، وهذا تسلية للرسول ﷺ، لأن اليأس إحدى راحتين. ثم وعد تعالى أن ينتقم منهم، وذلك أيضاً يوجب التسلية، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ﴾؟ إنكار وتعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، وهم قد استغرقوا في الكفر والضلال بحيث صار ما بهم من العشى عمى، مقروناً بالصمم!! ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؟ مدار الإنكار، هو تمكنهم في الضلال، المفرط، بحيث لا ارعواء لهم عنه، لا توهم القصور من قبل الهادي ﷺ، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك، إلا الله تعالى وحده.

﴿فَأِمَّا تَدَّهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾

﴿فَأِمَّا تَدَّهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ﴿فَأِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة.

﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ﴾

﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾ أي العذاب الذي وعدناهم إياه ﴿فَأِنَّا عَلَيْهِمْ

مُقَدِّرُونَ ﴿﴾ بحيث لا مناص لهم من تحت ملكنا وقهرنا، ولقد أراه ﷺ بعض ذلك يوم بدر، ويوم أحد.

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ۖ ﴾

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ ﴾ أي فتمسك بالقرآن الذي أنزل عليك، بمراعاة شرائعه وأحكامه، سواء عجلنا لك الموعود، أو أخرناه ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي على طريق سوي لا عوج له، وهو طريق التوحيد، ودين الإسلام.

﴿ وَإِنِّهٖ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ۖ ﴾

﴿ وَإِنِّهٖ لَذِكْرٌ ﴾ أي القرآن العظيم الذي أوحى إليك، لشرف عظيم ﴿ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي لك يا محمد خاصة، ولأمتك عموماً، إذ أنزل عليهم أشرف الكتب السماوية ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ يوم القيامة عنه، وعن قيامكم بحقوقه.

﴿ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً

يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ۖ ﴾

﴿ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ أي واسأل أممهم وعلماء دينهم، كما في قوله تعالى: ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ وفائدة هذا التنبيه على أن المسؤول عنه، عين ما نطقت به السنة الرسل قال الفراء: إنما يخبرهم عن أتباع الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء عليهم السلام ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أي هل أمرنا بعبادة الأوثان، وهل جاء ذلك في دين من أديانهم، والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على

التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع، حتى يكذب ويُعادى فيبين الله تعالى أن إنكار عبادة الأصنام، ليس من خواص دين الإسلام، بل كان جميع الأنبياء مطبقين على إنكاره!!.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ \* فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٦﴾ \* أريد بذكر قصة موسى تسلية الرسول ﷺ، والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، أي استهزؤوا بها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها بل ضحكوا سخرية واستهزاء.

﴿ وَمَا نُزِجُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

﴿ وَمَا نُزِجُهُمْ مِنْ آيَةٍ ﴾ من الآيات الباهرة، من ألوان العذاب كالطوفان، والجراد ﴿ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أي إلا وهي في غاية الكبر والظهور ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ أي وعاقبناهم بأنواع العذاب الشديد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الكفر، إلى دين التوحيد.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ ﴾ نادوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوهم، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لاستعظامهم علم السحر ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ بعهدك من النبوة، أو

من استجابة دعائك ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك كقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ (١).

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ عهدهم، مرّ في الأعراف.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه رؤساء القبط ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ في مجمعهم، بعدما انكشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر: نهر الملك، نهر طولون، نهر دمياط، نهر تيس ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي من تحت قصري في جناني وبساتيني ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك، يريد به استعظام ملكه، روي عن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأوليئها أحسن عبيدي!! فولأها الخصب وكان خادمه على وضوئه، فخرج إليها فلما شارفها قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون، والله إنها أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة ﴿مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف، حقير من المهانة وهي القلة، أي لا عزّ له ولا سلطان ولا مال، يقصد به موسى

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٤.

عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُيبِينَ﴾ أي الكلام، قاله افتراءً عليه، وتنقيصاً له في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من لُكنة، وقد كانت ذهبت عنه كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾.

﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ﴾ أي فهلاً ألقى الله إليه أسورة من ذهب، كرامة له ودلالة على نبوته، وقد كانوا إذا سؤروا رجالاً سؤروه وطوقوه بطوق من ذهب، وأسورة ﴿مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي يمشون معه يعينونه، ويصدقونه في دعواه.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فاستفزههم، وطلب منهم الخفة في مطاوعته، واستخف بعقول قومه ﴿فَاطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الكبير.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي أغضبونا أشد الغضب، من أسف إذا اشتد غضبه ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهلكناهم بالغرق في البحر.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار، يسلكون مسلكهم في استجلاب غضب الله ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ أي عظة لهم، أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال، فيقال: مثلهم كمثل قوم فرعون.

﴿ وَمَا ضَرْبَ ابْنِ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ وَمَا ضَرْبَ ابْنِ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ ضربه ابن الزبيري حين جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ حيث قال: أهذا لنا ولآلهتنا، أو لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: لكم ولجميع الأمم، فقال اللعين: خصمتك ورب الكعبة، أليس النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيزاً، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون معهم!! ففرح قومه وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ من أي ذلك المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يرتفع لهم جلبة وضجيج، فرحاً وجدلاً.

﴿ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي كفرة قريش ﴿ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؟ أي عيسى خير من آلهتنا، فإذا كان هو في النار، فلا بأس أن نكون مع آلهتنا في النار؟ وقد روي أنه ﷺ ردَّ عليه بقوله: ما أجهلك بلغة قومك!! أما تعلم أن «ما» لما لا يعقل!! يعني أن اعتراضه في غير محله، لأن الآية الكريمة وردت بلفظ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ و «ما» في اللغة لما لا يعقل، ولو كان النص «إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ» لكان هناك احتمال للاعتراض، على أن الآية بعدها وردت بالاستثناء ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما ضربوا لك ذلك المثل، إلا لأجل الجدل والخصام، لا لطلب الحق، حتى يدعنوا له عند ظهوره ببيانك. القائلون بدم الجدل تمسكوا بهذه الآية، والآيات الكثيرة تدل أن الجدل الذي يفيد تقرير الحق ممدوح، وتصرف هذه الآية على الجدل الذي يوجب تقرير الباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي شداد الخصومة، مجبولون على اللجاج والعناد، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ

قوم بعد هدى، كانوا عليه، إلا أوتوا الجدَل، ثم تلا ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ الآية (١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٩).

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أمراً عجبياً، حقيقة بأن يسير ذكره كالأمثال، حيث خلق من أم بدون أب، كما خلق آدم عليه السلام، وفيه تنبيه على بطلان رأي من رَفَعَه عن رتبة العبودية، إلى رتبة الألوهية، لأنه مخلوق ومولود كسائر الأولاد.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ (٦١).

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ الخ هذه الآية لتحقيق أن مثل «عيسى» ليس بيدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادر على أبداع من ذلك، بحيث لو نشاء ﴿لَجَعَلْنَا﴾ أي لخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنْكُمْ﴾ أي وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة ﴿مَلَائِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مستقرين فيها، أو لجعلنا بدلکم ملائكة ﴿يَخْلُقُونَ﴾ أي يخلقونكم يسكنون في الأرض. قال مجاهد: ملائكة يعمرن الأرض بدلاً منكم.

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١).

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي إن عيسى عليه السلام بمنزلة شرط من أشراف

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٥٠ وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه رقم ٤٨ باب اجتناب البدع والجدل، وأحمد في المسند ٥/٢٥٢.

الساعة، لأن الله عز وجل ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، فنزوله علامة على قربها، وقرأ ابن عباس «لَعَلَّكُمْ» للساعة، وهو العلامة ﴿فَلَا تَمَرَّتْ بِهَا﴾ فلا تشكن في وقوعها ﴿وَأَتَّبِعُون﴾ أي وقل لهم يا محمد اتبعوا هديي، وشرعي، وما جئكم به من عند الله ﴿هَذَا﴾ أي الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي دين قويم موصل إلى الحق.

﴿وَلَا يَصِدَّنَكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عِدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٢)

﴿وَلَا يَصِدَّنَكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن اتباعي ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عِدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بين العداوة، حيث عرّضكم للبلية.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣)

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات، وبالشرائع البينات ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي بالحكمة الإلهية وبالشرعة الواضحة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يتعلق بأمور الدين، لا بأمور الدنيا، لأن بيانه ليس من وظائف الأنبياء، كما قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»<sup>(١)</sup> ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أبلغه عنه تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٤)

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي أنا وأنتم عبيد لله مأمورون بعبادته،

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٣٦٣ عن عائشة أن النبي ﷺ مرّ بقوم يلقحون النخل، فقال: «لو لم تفعلوا لصلح، فخرج شيصاً - أي رديئاً - فقال لهم ﷺ: أنتم أعلم بأمر دنياكم وانظر جامع الأصول ٧٦٤/١١.

وفيه ردٌّ على النصارى الذين اعتقدوا بألوهيته ﴿هَذَا﴾ أي التوحيد، والعمل بالشرائع ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ  
الْيَوْمِ﴾ ﴿١٥﴾

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ أي الفِرْقُ المتحزبة بعد عيسى عليه السلام، فصاروا شيعاً وأحزاباً في شأنه ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من اليهود والنصارى فقال اليهود لعنهم الله: زنت أمه فهو ولد الزنى، وقال بعض النصارى: عيسى هو الله، وبعضهم قال: هو ابن الله، وزعم أكثرهم أن الله وعيسى وأمه آلهة، وهو ثالث ثلاثة، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ولهذا قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي من المختلفين في عيسى عليه السلام الذين قالوا عنه ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا  
يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة وهم مشغولون بأمور الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها.

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿الْأَخِلَاءُ﴾ المتحابون في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تأتيهم الساعة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لانقطاع ما بينهم من علائق الخلة، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلتهم في الدنيا لما كانت في الله، تبقى على حالها، بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم من الثواب، ورفع الدرجات.

﴿ يَبْعَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ .

﴿ يَبْعَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله تشريفاً لهم .

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي صدّقوا بالقرآن وآيات الرحمن ﴿ وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ أي مخلصين في إيمانهم وطاعتهم، وعن مقاتل، إذا بعث الله الناس فرع كل أحد، فينادي منادٍ يا عبادي فيرفع الخلائق رؤوسهم على الرجاء، ثم يتبعها ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فينكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم .

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ أي نساؤكم المؤمنات ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي تُسْرُونَ سروراً يظهر أثره على وجوهكم .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بعد دخولهم الجنة ﴿ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ جمع صحيفة، والصحفة: إناء كالقصة جمعها صحاف ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب وهو كوز لا عروة له وهو القدح ﴿ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ﴾ من فنون الملاذ ﴿ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ أي تستلذه وتقرُّ بمشاهدته ورؤيته ﴿ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ إتماماً للنعمة، فإن كل نعيم له زوال، ونعيم الآخرة دائم، والالتفات للتشريف .

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾ .

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة، شبه جزاء الأعمال بالميراث، لأنه يخلفه للعامل عليه.

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾ .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي بعضها، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، وإنما ذكر تعالى التنعم بالمطاعم والملابس، وهو حقير بالنسبة إلى سائر نعم الجنة، لما كان بهم من الشدة والفاقة.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ أي الراسخون في الإجرام، وهم الكفار، حسبما ينبيء عنهم إيرادهم في مقابلة المؤمنين.

﴿ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف العذاب عنهم ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ أي في العذاب ﴿ مُبْلِسُونَ ﴾ أي آيسون من النجاة.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد.

﴿ وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّنَكُوتٌ ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿ وَنَادُوا يَمْلِكُ ﴾ وهو خازن النار ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي ليمتنا حتى

نستريح، من قضى عليه إذا أماته، والمعنى سل ربك أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذكر من إبلاصهم، لأنه جوار وتمن للموت، لفرط الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه، بموتٍ ولا بغيره.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَادِرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو توبيخ من جهته تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ أي أكثركم كاره لدين الله ﴿كَادِرُونَ﴾ لا يقبلونه وينفرون عنه.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْ آتَانَا مَبْرُومُونَ﴾ ﴿٧٩﴾

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْ آتَانَا﴾ كلام ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ، والهمزة للإنكار، أي أأبرم وأحكم مشركو مكة أمراً، من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فَأَنَّا مَبْرُومُونَ﴾ كيدنا حقيقة لا هم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ وكانوا يتناجون في أنديةهم ويتشاورون في أموره ﷺ، فنزل قوله تعالى.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿٨٠﴾

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي بل أيحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعها ونطلع عليها ﴿وَرُسُلْنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبون ما صدر عنهم التي من جملتها سرهم ونجواهم، وعن يحيى بن معاذ «من ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فهذا من أمارات النفاق».

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ أي لهذا الولد، لأنه ﷺ أعلم الناس بشؤونه تعالى، وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومن موجبات تعظيم الوالد، تعظيم ولده<sup>(١)</sup>. والمقصود من هذا الكلام، بيان بأني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، إن قام دليل على ثبوت هذا الولد، إلا أنه لم يوجد، بل الدليل القاطع على عدمه، وفيه من الدلالة على كون رسول الله ﷺ على قوة يقين، في باب التوحيد، ما لا يخفى.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي ممَّا يصفونه به من الزوجة والولد، وفي إضافة اسم الرب إلى العرش أعظم الإجماع، تنبيه على أنها وما فيها تحت ملكوته وربوبيته، فكيف يُتهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه، وفي تكريم اسم الرب تفخيم لشأن العرش.

﴿ فَذَرَهُمْ مَخوضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ .

﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ حيث لم يذعنوا للحق، بعدما سمعوا هذا البرهان الجلي ﴿مَخوضًا﴾ في أباطيلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم، فإن ما هم فيه من الأفعال والأقوال، ليست إلا من باب الجهل واللعب ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي﴾

(١) الآية الكريمة على الفرض والتقدير، أي إن كان لله ولد، فأنا لا أستنكف عن عبادته، ولكنه سبحانه منزّه عن الولد، لأنه ليس له صاحبة، كما قال سبحانه ﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾؟ ثم الولد ينبغي أن يشبه أباه، فإله لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، فكيف يكون عيسى ابناً لله، وهو يأكل ويشرب ويحدث الحدث؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً!! .

يُوعَدُونَ ﴿ يعني يوم القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا، وما يُفعل بهم، والمقصود منه التهديد.

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٨٤﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ <sup>(١)</sup> أي معبود بالحق في السماوات والأرض ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أي الحكيم بصنعه، العليم بخلقه كالدليل لما قبله.

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي تمجّد وتقدس الله مالك السماوات والأرض، وما بينهما من المخلوقات، من الملائكة، والإنس والجن ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ التي تقوم فيها القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء، والالتفات للتهديد.

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي يدعونهم ﴿ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ ﴾ كما يزعمون ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ الذي هو التوحيد، أي المؤمن الموحد فهو الذي تنفع شفاعته، لا القسس، والكهّان، والأوثان ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإخلاص.

(١) لا يقتضي هذا تعدد الإله، لأن المراد بالإله هنا المعبود، أي هو جلّ وعلا معبود في الأرض كما هو معبود في السماء، يعبده أهل السماء وأهل الأرض.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أي سألت العابدين ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لتعذر الإنكار فيه، من فرط ظهوره ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ مع كونهم يعترفون بكون الكل مخلوقاً له تعالى .

﴿ وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّا هَتُولَاءِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿ وَقِيلِهِ ﴾ أي وقول الرسول، بالجر عطف على الساعة، أي عنده علم قوله ﷺ والقول والقال، والقييل، كلها مصادر ﴿ يَرْبِّ إِنَّا هَتُولَاءِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بك وبالقرآن فافعل بهم ما شئت، قيل له .

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨٩﴾ .

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن دعوتهم ﴿ وَقُلْ ﴾ لهم ﴿ سَلَّمَ ﴾ أي أنا هاجر لكم وتارككم، فهو سلام متاركة، لا سلام تحية ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ حالهم البتة وإن تأخر، وهذا وعيدٌ من الله تعالى لهم، وتسليّةٌ للرسول ﷺ، والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»

\* \* \*

## سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية وهي تسع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ .

﴿حَمَّ \* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي أقسم لكم بالقرآن العظيم، الواضح

البيِّن .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب المبين، وهو القرآن ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾ هي ليلة القدر<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وأطبقوا على أن ليلة القدر في رمضان، لقوله تعالى: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي

(١) أما القائلون بأن «الليلة المباركة» هي ليلة النصف من شعبان، فليس لهم دليل يعوّل عليه، من كتاب أو سنة، فإن صحَّ شيء عن رسول الله ﷺ فلا مزيد عليه وعلى الرأس والعين، وإلا فالحق ما عليه الجمهور أنها ليلة القدر، كما صرّح به الكتاب العزيز، وأنها في شهر رمضان المبارك، والله أعلم.

ابتدأ فيه إنزاله، أو أنزل جملة إلى السماء الدنيا، من اللوح المحفوظ، ثم نزل به جبريل عليه السلام في وقت الحاجة إليه ﷺ، وصفها تعالى بالبركة، لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدينية، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده، لكفى به بركة، وكفى لها شرفاً!! وأيضاً لما فيها لما من نزول الملائكة، والرحمة، وإجابة الدعوة، وفضيلة العبادة، وقسمة الأرزاق ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئناف مبين لما أنزلناه، أي لأن من شأننا الإنذار من العقاب.

﴿ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾

﴿ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ استئناف، لبيان فضل هذه الليلة، ففيها تُفصل الأمور المحكمة، والملتبسة بالحكمة، وهذا يدل على أنها ليلة القدر، ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم، من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة. وفي الآية بيان لعظم القرآن بحسب ذاته، لأن تعالى أقسم به، ووصفه بكونه مبيناً، وبحسب شرف الوقت أنزله في ليلة مباركة، وبحسب شرف منزله، وهو رب العزة والجلال، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

﴿ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾

﴿ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ أي أعني أمراً حاصلًا من عندنا، على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الرسل لهداية البشر.

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن، لأن من عادتنا إرسال الرسل إلى العباد، لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، فالأوامر الصادرة منه تعالى، من

باب الرحمة، فإن الغاية من تكليف العباد هو تربيتهم وتعريفهم للمنافع ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ يسمع أقوال العباد ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي يعلم أحوالهم.

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّكُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ ﴾ أي رب الكون كله، سمائه وأرضه ﴿إِنَّكُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم مريدين اليقين، فاعلموا أنه الله عز وجل.

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ إذ لا خالق سواه فهو المحيي المميت، خالق الخلق، ربُّ الأولين والآخريين.

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ أي غير موقنين في إقرارهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي لا يقولون ما يقولون عن جدِّ وإذعان، بل مخلوطاً بهزاء ولعب.

﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ فَأَرْتَقِبْ ﴾ أي فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي يوم شدة ومجاعة، وذلك أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم، فقال: اللهم اشُدُّ وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فأخذتهم سنة حتى أكلوا الجيف، والعظام، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض مثل الدخان، وذلك قوله تعالى:

﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ أي يحيط بهم ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي قائلين ذلك، وهذا قول ابن عباس، وابن مسعود، وهو اختيار الفراء، والزجاج، وأكثر العلماء، وعن علي: هو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران.

روي أن أبا سفيان ونفراً معه، مشوا إلى رسول الله ﷺ، وناشدوه الله والرحم، إن دعا لهم، وكشف الله عنهم العذاب، أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى حاكياً قولهم:

﴿ رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ (١٦).

﴿ رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ ومن فسر الدخان من الأشرار، قالوا: تصوّر المعذبون به من الكفار والمنافقين الدخان، فاستغاثوا وقالوا ربنا... إلخ.

﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٣).

﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾ أي كيف يتذكرون ويوفون بما وعدوه من الإيمان، عند كشف العذاب عنهم؟ ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر، وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم منه، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبيّن لهم مناهج الحق، بإظهار آيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونٌ ﴾ (١٤).

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ عن ذلك الرسول، ولم يقنعوا بالتولي، ﴿ وَقَالُوا ﴾ في حقه ﷺ ﴿ مُعَلِّمٌ مِّثْنُونٌ ﴾ قالوا تارة معلم يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف،

وأخرى مجنون، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم، أن يتأثروا بالعظة؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضفأ، - أي تذل - وإذا شبع طغى.

﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ، وما بينهما اعتراض، أي إنا نكشف العذاب المعهود عنكم، زماناً قليلاً، إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والفساد.

ومن فسر الدخان بأنه من أشراط الساعة قال: فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً، وحيثما يكشفه عنهم يرتدون، والأول هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، فإن قوله تعالى ﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ وقولهم ﴿ معلّم مجنون ﴾ يؤيده، واحتج القائلون بالثاني، ببعض الأحاديث الشريفة منها: ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض، والدجال، وخويصة أحدكم، وأمر العامة»<sup>(١)</sup> أي قبل ظهور ست آيات وعلامات، وقوله «وخويصة أحدكم» أي ما يختص به الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله، فيشغله، ويريد بأمر العامة القيامة الكبرى، وقيل الفتنة التي تعم الناس، واستدلوا أيضاً بما روي عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال ﷺ: «إنها لن تقوم - أي الساعة - حتى تروا عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، ونار تخرج من اليمن»<sup>(٢)</sup>. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس قد

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في الفتن.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن رقم ٢٩٠١.

مضين: اللزأ، والرؤم، والبطشة، والقمر، والدخان»<sup>(١)</sup>. عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً يقص، ويزعم أن آية الدخان تجيء، فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منها كهيئة الزكام، فقال: يا أيها الناس اتقوا الله، من علم منكم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم شيئاً فليقل: الله أعلم، إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً فكذبوه، واستعصوا عليه، قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حصت<sup>(٢)</sup> كل شيء، حتى أكلوا الجلود، والهيئة من الجوع، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان، فذلك قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿يَوْمَ نَبِّطُشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾<sup>(١٦)</sup>.

﴿يَوْمَ نَبِّطُشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم بدر ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ أي يومئذ نتقم منهم أشد أنواع الانتقام.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾<sup>(١٧)</sup>.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي امتحنا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بإرسال موسى يعني عاملناهم معاملة المختبر، وأوقعناهم في الفتنة، بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي كريم على الله، وكريم في نفسه، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سراً قومه وكرامهم.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾<sup>(١٨)</sup>.

(١) أخرجه البخاري ٥٧٤/٢ في تفسير سورة الدخان.

(٢) أي أفنت وأكلت كل شيء.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٥٧٣/٨.

﴿ أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ أي بأن أدوا إليّ بني إسرائيل، أي سلموا إليّ قومي كقوله تعالى: ﴿ فَأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ (١) ﴿ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ قد ائتمني الله تعالى على وحيه، وصدّقني بالمعجزات.

﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ .

﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا تتكبروا على الله تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله ﴿ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وهي معجزة العصا واليد.

﴿ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أي التجأت إليه، وتوكلت عليه ﴿ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ أي من أن ترجموني أي تقتلوني، قيل: لما قال: ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ توعدوه بالقتل، والمعنى: إني عائد بربي من كيدكم وشرككم، فهو غير مبالٍ بما كانوا يتوعدونه به من الرجم.

﴿ وَإِن لَّمْ تَوُفُّوْا لِي فَأَعْلَزُونِ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ وَإِن لَّمْ تَوُفُّوْا لِي فَأَعْلَزُونِ ﴾ أي فإن لم تؤمنوا لي فكفُّوا أذاكم عني، ولا تتعرضوا لي بشر وسوء، فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُوْا لِي قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ بعدما أصروا على تكذيبه ﴿ أَنْ هَتُوْا لِي قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ أي

(١) سورة طه، آية: ٤٧.

مصرون على الكفر والإجرام، فانتقم منهم، فإن قيل: الكفرُ أعظم من الجرم، فلم قال ﴿تَجْرِمُونَ﴾ ولم يقل كافرون؟ فالجواب: أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وقد يكون مع كفره مجرمًا، مرتكباً لأنواع الكبائر والجرائم، وهؤلاء جمعوا بين الكفر والإجرام، وسرعان ما كانت استجابة الدعاء!! قال تعالى أمراً له:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (٢٣)

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ بإضمار القول، أي أجاب الله دعاءه، وأمره أن يخرج بني إسرائيل بالليل، على غفلة من العدو، لينجوا من شر فرعون وأتباعه ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وجنوده، بعدما علموا خروجكم.

﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (٢٤)

﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي سيغرقون في البحر، ولا يستطيعون النجاة.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ﴾ (٢٥)

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي كثيراً تركوا بمصر ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ﴾ بساتين وحدائق غناء، وعيون جارية بالماء.

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (٢٦)

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي مزارع واسعة، فيها أنواع الخضرة والثمار، ومساكن ودور وقصور أنيقة.

﴿ وَنِعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَنِعْمَةٌ ﴾ أي تنعم ، والنَّعْمَةُ بالفتح ما يتنعم به الإنسان ، وبالكسر من الإِنْعَام ﴿ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ متنعمين ، تفكّه بالشي أي تمتع به .

﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ قيل هم بنو إسرائيل ، وقيل : غيرهم لأن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر (١) .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ أي فما حزن على فقدهم أحد ، ولا تأثر بموتهم مخلوق ، لأنهم فجرة أشقياء ، وبكاء السماء كناية عن الحزن والتفجع عليهم ، وفيه تهكم بهم ، وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقدّه ، فيقال : بكّت عليه السماء والأرض ، وقيل : بكاء السماء حقيقة ؛ لما روي عن أنس رضي الله عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من مؤمن إلا وله بابان : بابٌ يصمد فيه عمله ، وباب ينزل منه رزقُهُ ، فإذا مات بكيا عليه ، ثم تلا ﷺ ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ . (٢) الآية ، وقيل : تقديره ما بكى عليهم أهل السماء والأرض .

(١) القول الأول هو الصحيح ، أن الذين ورثوا ديار قوم فرعون هم بنو إسرائيل ، لقوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فالنص صريح في أن الوارثين كانوا بني إسرائيل ، والقول بأنهم لم يعودوا إلى مصر غير صحيح ، وهي أخبار إسرائيلية .  
(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٣٥٤ / ٥ .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ أي من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم .

﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ أي من عذاب فرعون ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا ﴾ أي متكبراً، جبّاراً، ﴿ مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مسرفاً في الشر والفساد .

﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ بأنهم أحقّاء بالاختيار ﴿ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾ أي عالم زمانهم .

﴿ وَءَايَاتِنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَكُوا مُبْتَلًى ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَءَايَاتِنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ ﴾ . كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وغيرها ﴿ مَا فِيهِ بَلَكُوا مُبْتَلًى ﴾ أي اختبار ظاهر، لننظر كيف يعملون؟ .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴾ يعني كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على تماديهم في الإصرار على الضلالة، والتحذير من حلول مثل ما حلّ بهم .

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى ﴾ أي ما العاقبة إلا الموتة الأولى، المزیلة للحياة الدنیویة، ولیست الموتة إلا هذه الموتة، دون التي تعقب حياة القبر، كما تزعمون، ثم صرّحوا فقالوا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ أي بمبعوثین.

﴿ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ فَأَتُوا بِآبَائِنَا ﴾ خطاب لمن وعدهم بالبعث بعد الموت ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فیما تعدون به من قیام الساعة، فأحیوا لنا من مات من أجدادنا.

﴿ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَعِّعُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ أَهْمَ خَيْرٌ ﴾ ردُّ لقولهم، وتهديد لهم، والمعنى: هل كفار قريش خيراً في القوة والمنعة ﴿ أَمْ قَوْمٌ تُبَعِّعُ ﴾ هو «تُبَعِّعُ الحِمِيرِي» وكان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمهم الله تعالى دونه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تُسَبُّوا تُبَعّاً فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ»<sup>(١)</sup> سُمِّيَ تُبَعّاً لكثرة أتباعه، وقيل لملوك اليمن «التبابعة» لأنهم يتبع بعضهم بعضاً، كل ملك يتبع صاحبه الذي قبله، كما يسمى في الإسلام خليفة ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ والمراد منهم عاد وثمود، وأضرابهم من كل جبار عند ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بيان عاقبة أمرهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ تعليل لإهلاكهم حيث أهلكوا بسبب إجرامهم، مع ما كانوا في غاية القوة، فلأن يهلك هؤلاء أولى.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْبِ ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْبِ ﴾ أي للعبث واللغو.

(١) أخرجه أحمد في المسند.

﴿ مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٩).

﴿ مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الذي هو الإيمان والطاعة، والبعث والجزاء  
﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الأمر كذلك.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٠).

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ أي يوم القيامة لأن فيه فصل الحق عن الباطل،  
والفصل بين العباد ﴿ مِيقَتُهُمْ ﴾ أي وقت موعدهم للحساب ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾  
أي الأولين والآخرين، برهم وفاجرهم.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٤١).

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴾ أي لا يفيد ولا يدفع ﴿ مَوْلَىٰ ﴾ أي ناصر وولي قرابة أو  
غيرها ﴿ عَنْ مَوْلَىٰ ﴾ أي عن أي قريب له ﴿ شَيْئًا ﴾ قليلاً من الإغناء ﴿ وَلَا هُمْ  
يُنصَرُونَ ﴾ أي لا يقدر على نصرته ولو كان قريبه، ولا ينفعه أي نفع،  
ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾.

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٢).

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ بالعفو عنه، وقبول الشفاعة في حقه ﴿ إِنَّهُ هُوَ  
الْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يُنصر من أراد تعذيبه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ لمن أراد أن  
يرحمه من أهل الإيمان.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِمْ ﴾ (٤٣).

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِمْ ﴾ أي الشجرة اللعينة التي تنبت في قعر جهنم.

﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ أي كثير الآثام، والمراد به الكافر، لدلالة ما قبله وما بعده .

﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ أي كالنحاس المذاب الذي انصهر واشتدت حرارته  
﴿ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ أي يفور في بطون أهل النار، كغليان القدر بالطعام .

﴿ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ الماء إذا اشتد غليانه فهو حميم .

﴿ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ خَذُوهُ ﴾ على إرادة القول، والخطاب للزبانية ﴿ فَأَعْتَلُوهُ ﴾ أي  
جرّوه، والعتل: الأخذ بمجامع الشيء وجرّهُ بقهر وعنف ﴿ إِلَى سَوَاءِ  
الْجَحِيمِ ﴾ أي وسطه .

﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ ثُمَّ صُبُّوا ﴾ أي ألقوا الماء الحار ﴿ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ أي  
فوق رأس ذلك الشقي الفاجر، من هذا الماء الحميم، الذي تناهت  
حرارته .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي ويقال له على سبيل السخرية

والاستهزاء: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم، روي أن أبا جهل قال للرسول ﷺ: علامَ تهددني؟ ما بين بطاحها لا أعز ولا أكرم مني، فوالله لا تستطيع أنت ولا ربك، أن تفعل بي شيئاً، فقتله الله يوم بدر وأذله، ويقال له في القيامة: ذق إنك أنت العزيز الكريم.

﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي العذاب ﴿ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تشكُّون فيه.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿ فِي مَقَامٍ ﴾ أي في مكان إقامة، وهي قصور الجنة ﴿ أَمِينٍ ﴾ يأمن صاحبه من الآفات، والانتقال عنه، والمسكن إنما يطيب بشرطين: ١ - أن يكون آمناً عن جميع ما يخاف. ٢ - وأن تكون أسباب النزهة فيه كاملة.

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية، وهذا يدل على اشتماله على طيبات المآكل والمشارب.

﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَلِّبِينَ ﴾.

﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي من أنواع ملابس الحرير، الرقيق منه والسميك ﴿ مُتَقَلِّبِينَ ﴾ في المجالس، ليستأنسوا بذلك. فإن قيل الجلوس على هذا الشكل موحش، لأن كل واحد منهم يطَّلَع على ما يفعله الآخر، قلنا: أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا.

﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿كَذَلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرنناهم بزوجات من الحور العين، والحورُ: جمع حوراء وهي البيضاء، والعِينُ جمع عيناؤ وهي عظيمة العينين.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ أي يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿آمْنِينَ﴾ من كل ما يسوؤهم، ويكدر صفوهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ بل يستمرون على الحياة الأبدية ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ التي ذاقوها في الدنيا ﴿وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي نجَّاهم الله من عذاب جهنم الفظيع.

﴿فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

﴿فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون، الخلاص من عذاب النار، وال فوز بالجنة، إنما حصل لهم بفضل الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، إذ هو خلاصٌ من المكاره، ونيلٌ لكل المطالب، وذلك النعيم تكرمة من الله عزَّ وجلَّ لهم.

﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥٨)

﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي إنا أنزلنا الكتاب المبين بلغتك، كي يفهمه قومك، ويتذكروا ويعملوا بموجبه.

﴿ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ (٥٩)

﴿ فَأَرْتَقِبْ ﴾ فانظر يا محمد ما يحل بهم ﴿ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ إنهم ينتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون العاقبة، ولمن يكون النصر والظفر؟ وفيه وعد للرسول ووعد للمشركين، والله أعلم بمراده، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»

\*\*\*

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

مكية وهي سبع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ .

﴿حَمَّ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أي هذا القرآن منزل من رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، لا كما زعم المشركون أنه من وضع محمد .

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٣ .

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وللكافرين، إلا أنه لما انتفع المؤمن دون الكافر، أضيف للمؤمنين، ونظيره ﴿هدى للمتقين﴾ فإنه هدى لكل، كما قال سبحانه ﴿هدى للناس﴾ نَبَّه تعالى على الآيات التكوينية، والأنفسية، والآفاقية، أما السماوات والأرض فإنهما منطويتان على فنون الآيات البديعة، من نجوم زاهرات، وشمس وقمر، والأرض وما فيها من جبال وبحار، وأنواع المخلوقات العجيبة، وأما الآيات في الأنفس فقد ذكرها في قوله:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ أي من نطفة، ثم من علقة، متقلبة في أطوار مختلفة، إلى تمام الخلق ﴿ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي فيما ينشره ويفرقه وينوعه، من دابة تدب على وجه الأرض ﴿ آيَاتٌ ﴾ دلائل على الصانع المختار ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه .

﴿ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيْفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٥﴾ .

﴿ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ إما تعاقبهما وإما اختلافهما طولاً وقصراً ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴾ أي من مطر، وهو سبب الرزق، عبّر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة، والرحمة ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع، والنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بعد يبسها وعرائها عن آثار الحياة، ﴿ وَتَصْرِيْفِ الرِّيْحِ ﴾ من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، ولها منافع آخر، ومن جعلتها سوق السفن في البحار ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وتنكير آيات في المواقع الثلاثة، للتفخيم كما وكيفاً .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسة بالحق ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ﴾ من الأحاديث ﴿ بَعْدَ اللَّهِ ﴾ أي بعد كتاب الله ﴿ وَآيَاتِهِ ﴾ أي بعد آيات الله ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؟ .

﴿ وَيَلِكُلُ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿ وَيَلِكُلُ لِكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ أي كذاب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي كثير الآثام والجرائم .

﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ

الْأَلِيمِ ﴿٨﴾ .

﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ صفة أخرى لأفَّاك ﴿ تُنَلَّى عَلَيْهِ ﴾ أي تقرأ عليه وهي في غاية البيان والوضوح ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي يقيم على كفره، ويصر على طغيانه ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أي مستكبراً عن الإيمان، مستمراً على الطغيان، معجباً بما عنده من الأباطيل، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري من أحاديث العجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية وردت بعبارة عامة، ناعية عليه، وعلى كل من يسير سيرة، هذا العمل المشين ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كأنه لم يسمعها، فخفف فحذف ضمير الشأن ﴿ فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ الْإِيمِ ﴾ على إصراره واستكباره، والبشارة للتهكم.

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا ﴾ أي إذا بلغه من آياتنا شيء، وعلم أنه من آياتنا ﴿ اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أي الآيات كلها مهزوءاً بها، من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزاء، ولم يقل اتخذه للإشعار بأنه خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى كل أفَّاك ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب جنایاتهم المذكورة ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي عذاب شديد مؤلم، مع الذل والإهانة.

﴿ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ .

﴿ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أعدَّ لهم ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ ﴾ أي ولا يدفع عنهم ﴿ مَا كَسَبُوا ﴾ من الأموال والأولاد ﴿ شَيْئًا ﴾ من عذاب الله ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي ما عبدوا من الأصنام، وتوسيط حرف النفي مع أنَّ عدم الإغناء من الأصنام أظهر

مبني على زعمهم، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ﴿ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره .

﴿ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحِ أَلِيمٍ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ هَذَا هُدًى ﴾ أي القرآن الكريم في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحِ أَلِيمٍ ﴾ أي من أشد أنواع العذاب، وتنوين العذاب في المواقع الثلاثة للتفخيم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾ بأن جعله أملس السطح، يطفو عليه ما يتخلل كالأخشاب، ولا يمنع الغوص ﴿ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ أي لتسير فيه السفن بتدبيره وإذنه وأنتم راكموها ﴿ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بالتجارة، والغوص، والصيد، وغيرها ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعكم ﴿ مِّنْهُ ﴾ أي كائناً منه تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فيما ذكر ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة وكثيرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في بدائع صنع الله تعالى .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ أي يعفوا ويصفحوا ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾

أي عن الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعتقدون بحساب الله وجزائه، نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك أن مشركاً من بني غفار شتمه بمكة، فهمّ عمر أن يبطش به، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يصفح عنه ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الآثام والإجرام، وبما كانوا يكسبون من قبيح الفعال.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من فعل خيراً في هذه الحياة فنفعه لنفسه، ومن فعل شراً فضرره عائد عليها، لا يكاد يسري إلى غيره، وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح، وزجر عن العمل الباطل ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي مالك أموركم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي الحكمة وفصل الخصومات بين الناس ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ حيث كثر فيهم الأنبياء، بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين إشارة لفضلها على نعم الدنيا ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ كالمنّ والسلوى، وأنواع اللذائذ، والثمرات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أي عالم زمانهم، فأمة محمد ﷺ أفضل الأمم بالنص القاطع ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

﴿وَعَايَنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مَن بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿وَأَتَيْنَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي دلائل ظاهرة في أمر الدين ﴿فَمَا اٰخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بحقيقته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿بَغِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، والمقصود أن يبين أن طريقة كفار مكة، كطريقة من تقدم في جحود النعم، والتكبر والعناد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي أمر الدين ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ بإجراء أحكامها في نفسك، وفي غيرك، من غير إخلال بشيء منها ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم رؤساء قريش يقولون: ارجع إلى دين آبائك، وهذه آراء الجهلة النابعة من الشهوات.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مما أراد بك إن اتبعتهم ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لا يواليهم إلا من كان مثلهم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين أنت قدوتهم، فدم على ما أنت عليه، وأعرض عما سواه بالكلية.

﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هذا القرآن نور وضياء، وهدى وشفاء، ورحمة لمن آمن به، واستمسك بهدائيته.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١)

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ﴾ استئناف مسوق لتباين حال المسيئين، وحال المحسنين، إثر بيان حال الظالمين والمتقين، و «أم» منقطعة وما فيه من معنى «بل» للانتقال من بيان الأول إلى الثاني ﴿ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ الاجتراح الاكتساب، ومنه الجوارح ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ ﴾ أي نصيرهم في الحكم والاعتبار، وهم على ما هم عليه من مساوىء الأحوال ﴿ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾؟ وهم فيما هم من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في الكرامة؟ ﴿ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أي محيا الفريقين ومماتهم؟ كلاً لا يستوون في شيء منهما، فإن هؤلاء في عز الإيمان والطاعة في المحيا، وفي رحمة الله ورضوانه في الممات، وأولئك في الكفر والمعاصي في الدنيا، وفي لعنة الله والعذاب في الممات، شتان بينهما، فلا يتساوى المؤمنون الأبرار مع الكفرة الفجار!! ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء حكمهم هذا، وظنهم الباطل، قال الكلبي: نزلت هذه الآية، في عتبة، وشيبة، والوليد، قالوا للمؤمنين: لو كان ما تقولون حقاً، لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، لأننا أفضل حالاً منكم في الدنيا!! فأنكر الله عليهم، ويين أنه لا يمكن أن يتساوى المجرم مع المحسن، ونظيره قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٢)؟.

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٢)

(١) سورة السجدة، آية: ١٨.

(٢) سورة القلم، آية: ٣٥ - ٣٦.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالعدل والأمر الحق، فإن خلق الله لهما بالحق المقتضي للعدل، يقتضي تفضيل المحسن على المسيء، في المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم، وإذا لم يطرَد ذلك في المحيا، فهو بعد الممات حتماً ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على ما قبله، أي لأجل إظهار الحق، ولتجزى كل نفس بما فعلت في الدنيا، وهذا لا يتم إلا إذا حصل البعث ﴿وَهُمْ﴾ أي النفوس المدلول عليها كل نفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، وتسمية ذلك ظلماً، لبيان غاية تنزهه تعالى عنه.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣).

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾؟ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكانه عبده، أي أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقتضي منه العجب!! لأنه كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده، فإذا رأى أحسن منه رفضه وكسره، وعبد الآخر ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ أي خذله ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي عالماً سبحانه باختياره الضلالة، وتبديله لفطرة الله، التي فطر الناس عليها ﴿وَوَخَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾؟ أي من بعد إضلاله إياه، بموجب تعاميه عن الهدى، وتماديه في الغي؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي ألا تلاحظون فتعتبرون وتتعتون؟.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤).

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يصيبنا الموت والحياة فيها،

وليس وراء ذلك حياة بعد موتنا، ولا بعث ولا نشور ﴿ وَمَا يُهْلِكُكَ إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ أي إلا مرور الزمان، وتعاقب الأيام، وكانوا يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس، مرور الزمان، وينكرون قبض الأرواح ويضيفون الحوادث إلى الدهر، وما نالهم من الشدائد إليه كذلك، ويسبون فاعلها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»<sup>(١)</sup> أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ ﴾ أي بما ذكر من إسناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مستند إلى عقل، أو نقل ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي قصارى أمرهم الظن والتقليد، من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة.

﴿ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا أَبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ آياتنا الناطقة بالحق، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ أي ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا أَبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي إلا هذا القول الباطل، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة، وتسميته حجة لسوقهم إياه مساق الحجة، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مطلقاً.

﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ ﴾ بعد البعث ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ للجزاء ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي في جمعكم، فإن من قدر على البدء، قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجزاء لا محالة، والإتيان بأبائهم حيث كان منافياً

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٢٩٩/٥ .

للحكمة التشريعية، امتنع إيقاعه في الحال ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا يعلمون قدرة الله على الإماتة والإحياء، ولذلك ينكرون البعث والجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٧٧﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيان لاختصاص الملك والتصرف فيهما بالله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي الكافرون بالبعث، لأن الحياة والعقل والصحة رأس المال، والتصرف فيها لطلب السعادة الأبدية، والكفار قد اتعبوا أنفسهم في هذه الحياة، وما وجدوا منها إلا الخسران.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٨﴾.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ أي باركة على الركب ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي إلى صحيفة أعمالها ﴿الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: اليوم تنالون جزاء أعمالكم، من خير أو شراً!!.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٩﴾.

﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ من تمام ما يقال لهم، وحيث كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله، أضيف إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه ﴿كِتَابُنَا﴾ وتهويلاً لأمره، ومن حيث اشتماله على أعمال كل أمة، أضيف إليها ﴿تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ﴾ أي يشهد عليكم ﴿بِالْحَقِّ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ أي إنا كنا فيما قبل نستكتب الملائكة ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا من خير أو شر.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٨٠﴾.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي يدخلهم في جنته التي هي مكان تنزل الرحمة ﴿ ذَلِكَ ﴾ الإدخال في الرحمة ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ أي السعادة التي لا سعادة وراءها.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣١).

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ كان همكم في الدنيا الإفساد والإجرام!؟.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴾ (٣٢).

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أي ما وعدكم من الأمور الآتية ﴿ حَقٌّ ﴾ واقع لا محالة ﴿ وَالسَّاعَةُ ﴾ التي هي أشهر ما وعد به ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في وقوعها ﴿ قُلْتُمْ ﴾ لغاية عتوكم ﴿ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ أي أي شيء هي، استغراباً لها ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي ما نعتقد بها إلا ظناً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴾ لإمكانه، ولعلّ هؤلاء غير القائلين ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾.

﴿ وَبَدَأَهُمُ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٣٣).

﴿ وَبَدَأَهُمُ ﴾ أي ظهر لهم حينئذ ﴿ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا ﴾ على ما هي عليه، من الصورة المنكرة الهائلة، وعابنوا وخامة عاقبتها، أو جزاءها فإن جزاء السيئة سيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي جزاءه.

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٣٤).

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ ﴾ أي نترككم في العذاب ترك المنسي ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي تركتم العمل له ولم تبالوا به ﴿ وَمَأْوَأَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ أي ما لأحد منكم ناصر يخلصكم منها.

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْنَبُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ ﴾ أي هذا العذاب بسبب أنكم ﴿ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا ﴾ مهزوءاً بها ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ من النار، والالتفات للاستهانة بهم ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْنَبُونَ ﴾ أي لا يطلب منهم أن يعبتوا ربهم، أي يرضوه، لفوات أوانه.

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ﴾ خاصة، إذ الكلُّ منه نعمة، ودالة على كمال قدرته ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تكرير الرب للتأكيد، وليبان أن ربوبيته لكل منها بطريق الأصالة، ويوحى بالعظمة والجلال، فهو ربُّ الكائنات، وخالق الأرض السموات، الذي تفرَّد بالخلق والتدبير.

﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لظهور آثارها فيهما ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم في كل ما قضى وقدر، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البجائية»

\* \* \*